

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00858 3365

51-81304

Feb 22/5

18/5



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

PJ.

PJ

7572

7816

A32

M3

SS

D3

1962

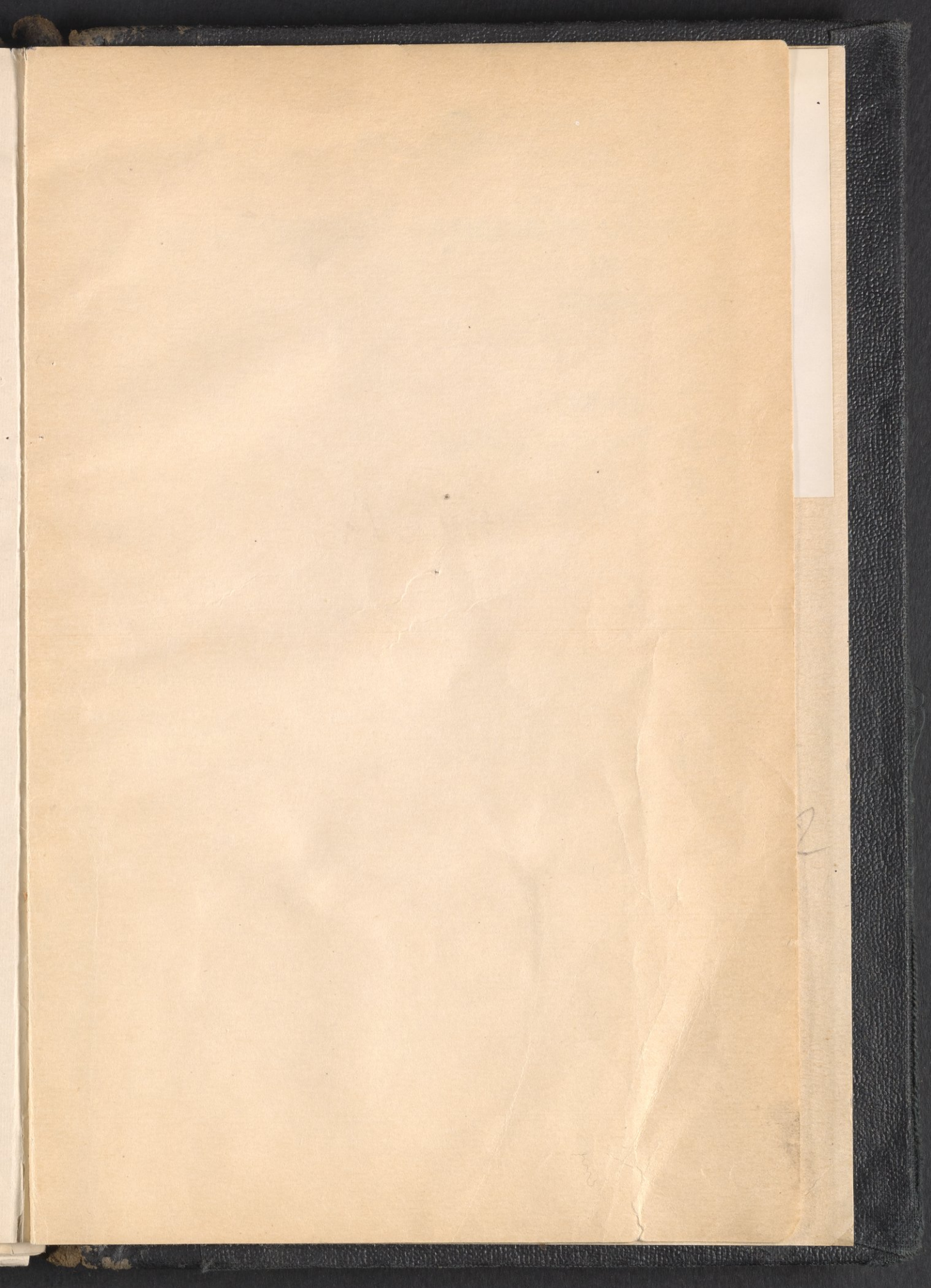
1954

27 APR 1987

6261 034 27

PJ
7750
B3
Z57
1954

27 APR 1987



بيع الزمان المندري

نوابغ الفكر العربي

٩

PJ

Abbūd, Marūn

7750

Badī' al-Zamān al-Hamadhānī

B3

Z57

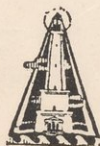
1954

بدرع الزمان الهمداني

بقتلم مارون عبود

قريحة وقادة وبصيرة نفاذة
وذخيرة من الأدب فيياضة ألهمت
صاحبها بآثار روائع فنسب
إلى فلتات الزمان وبدائع الدهر.

الهمداني، أبو الحسن أحمد بن الحسين بن سعيد
الهمداني المعروف ببدرع الزمان ٢٥٨-٣٩٨ هـ



دار المعارف بيروت

مكتبة جامعة القاهرة
1950

٩٥٢

هم. ح

فانتهى الكتاب

في سنة ١٢٨٥

في سنة ١٢٨٥

في سنة ١٢٨٥

في سنة ١٢٨٥

في سنة ١٢٨٥

في سنة ١٢٨٥

في سنة ١٢٨٥



37397

الفصل الأول

عصر بديع الزمان

١ - الحالة السياسية

سئل أحد الساسة الأتراك : متى ابتدأت انكسارات الدولة العثمانية ، فأجاب : منذ أول انتصار . ثم فسّر جوابه هذا بقوله : لأنها لم تفرض لغتها على المغلوبين .

أما الدولة العربية فهي بالعكس . أخفقت في السياسة والحكم ، وبفضل القرآن الكريم انتصرت في الدين واللغة انتصاراً لا مثيل له في تواريخ الأمم والشعوب . ما شبّت الدولة عن الطّوق^(١) حتى دبّ الاضطراب إلى سياستها ، فمنذ بيعة أبي بكر أبدت الفتنة أذنيها ، وكان في كل عهد مرتدّون ، وثوّار ، وخوارج ، فلا يخمد السلطان النار في جهة حتى تضطرم في ناحية أخرى ، وحسبك أن الخلفاء الراشدين الصالحين الأربعة لم يمت أحد منهم حتف أنفه^(٢) غير أبي بكر الصديق . ثم لم تخضع الديار الإسلامية كلها لسلطان واحد إلا في زمن الأمويين .

ولما حُسم القضاء عليهم وهزم مروان الجعدي ، وآل الملك إلى بني العباس نبتت على الأثر دولة أموية جديدة في الأندلس تركت في العالم القديم ما أثر

(١) الطرق حلّ للعنق . وشب عن الطرق : نما وكبر . قاله جذيمة في ابن أخته عمرو ابن عدى وقصة ذلك أن عمراً لما ترعرع كان يخرج مع الخدم يجتنون للملك الكمأة فخرج يوماً وعليه حلّ وثياب ففقد زماناً فلما وجد بعث به إلى أمه فأدخلته الحمام وألبسته وطرقته طرقاً كان له من ذهب فلما رآه جذيمة قال : شب عمرو عن الطرق .

(٢) مات حتف أنفه : مات من غير قتل ولا ضرب بل على فراشه . قال السموءل :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل يوماً حيث كان قتيل

عزّ نظيرها حضارةً وعلماً وعمراً ، حتى قال أحد المؤرخين الغربيين في عبد الرحمن الناصر : إنه ملك يصلح لسياسة أعظم دولة في القرن العشرين .
والرشيد الذي قال للغمامة : أمطري حيث شئت فإن خراجك يأتي ،
لم يسلم عهده الذهبي من تفسّخ . ففي زمن ولايته أنشأ العلويون دولة جديدة في المغرب الأقصى عرفت بالدولة الإدريسية . وأراد هارون أن يتقّى شرها ، على بعد المزار ، فعمل ما تعمله الدول اليوم ، فأنشأ إمارة بني الأغلب في إفريقيا . وعلى خطة الرشيد درج ابنه المأمون فأقطع قائده طاهر بن الحسين خراسان ، فكانت إمارة بني طاهر التي دامت زهاء خمسين سنة وأكثر .

ثم أخذ الضعف يدبّ في جسم الدولة رويداً رويداً ، فنشأت دول أكبر وأخطر ، فكانت الدولة الصفارية في فارس ، ثم السامانية التي أزاحتها عن تخومها واستولت على فارس وما وراء النهر . وظهرت الدولة الزيارية في جرجان ، ثم كانت الدولة البويهية التي لم تكتف بفارس بل بسطت سلطانها على العراق أيضاً ، وغلبت الخليفة على أمره حتى لم يبق له من الملك إلا الاسم ، بل شاركه بعضهم في خطبة الجمعة .

هذا ما آلت إليه الدولة العباسية في القرن الرابع الذي هو قرن المقامات والنثر المنمّق . كان الخليفة في هذا العصر يؤمّر فيطيع ، ولم يعد له من رقعة الدولة الواسعة غير بغداد ، بل بغداد نفسها كانت معرضة دائماً لغارات هؤلاء الملوك الذين استقل كل واحد منهم بمقاطعة ، بل بالعاصمة نفسها ، وحجر على الخليفة وعيّن له مبلغاً من المال لنفقته .

ومن طالع التواريخ رأى أن أعمار الخلفاء لم تبق بيد الله كما نقول ، بل صارت بيد خدامهم ، فهم الذين يعزلون خليفة ويولون آخر ، ومن عصى فالعصا . ففي أثناء أربعة عشر عاماً — من سنة ٣٢٠ إلى ٣٣٤ — نصبوا وعزلوا سبعة خلفاء ، منهم من قتل ، ومنهم من سملت عيناه ^(١) . ومنهم من قتل صبراً .

وحاول القاهرة بالله ، أحد خلفاء هذا القرن ، أن يعيد الخلافة جذعة ، فضيقوا عليه وحاصروه في دار الخلافة وفتشوا الداخل عليه والخارج من عنده ، حتى

أدخل أحمد بن زيرك الذي جعل على حراسته يده في اللبن المحمول إلى الخليفة لئلا يكون فيه رقعة .

ولما عرف القاهر أنهم عازمون على خلعه تغدأهم قبل أن يتعشوا به . « ذبح على بن بليق ووضع رأسه في طشت . ثم مشى ، والطشت أمامه ، حتى دخل على والده بليق أبي علي فوضع الطشت بين يديه ، وفيه رأس ابنه ، فلما رآه بكى . ثم أمر بذبح بليق ، فذبح ووضع رأسه في الطشت . وحمل الطشت أمام القاهر ومشى حتى دخل على مؤنس ، فوضع الرأسين أمامه . فلما رآهما مؤنس تشهد . ثم أمر بذبح مؤنس فذبحوه وجعلوا رأسه في طشت . وأمر فطيف بالرؤوس الثلاثة في جانبي بغداد ، ونودى : هذا جزء من يخون الإمام ويسعى في فساد دولته (١) . » ولكن كل هذا الإرهاب والتمثيل لم يحل دون خلعه ، فما دامت خلافته إلا سنة وسبعة أشهر ، وهو أول من سملت عيناه من الخلفاء . ويقال إنه كان يستعطي في آخر أيامه .

وكثيراً ما صاروا في هذا العصر يُصَفَّونَ مال الخليفة ويتركونه صفر اليدين . وأخيراً صار الحكم فريسة القوى المستأسد ، فكل من رأى في نفسه قوة استبد بمقاطعة وأقام نفسه ملكاً عليها . كان لقب « الحضرة » مختصاً ببغداد ، أما في هذا القرن الذي نلمّ بفذلكة من تاريخه السياسي فأصبح في كل بلد « حضرات » وكثرت الألقاب ، فمن يمين الدولة إلى عضدها ، ومن ملك الملوك إلى الشاه والشار ، إلى السلطان ، فصَحَّ فيها ما قيل في الأندلس :

ألقاب مملكة في غير موضعها كاهر يحكى انتفاخاً صورة الأسد
* ولا عجب أن سُمِّيَ المتنبي هذه الحقبة من الزمن دولة الخدم ، فأكثر هؤلاء كانوا خدماً أما واستحالوا قواداً ، ثم صاروا ملوكاً . فأصدق وصف للمملكة العربية في هذا القرن ، هو ما قاله فيها أبو الطيب ابن ذلك القرن :

بكل أرض وطشها أمم
تُرعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه
وكان يُبرى بظفره القلم

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم

وقال أيضاً في هؤلاء معللاً نفسه بإحدى الممالك مثلهم :

لأتركن وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم
بكل منصلت ما زال منتظري حتى أدلت له من دولة الخدم

ولماذا لا يعلل نفسه بالسلطان عبقرى كالمنتبى بعد ما رأى الثورات تلى الثورات
والغزوات تلى الغزوات ، خليفة يقتل ليوائى غيره ولاية اسمية. أما الفعل والسلطان ففي
يد من وصفهم المنتبى . كان الخلفاء قابعين في قصورهم يتلمسون رؤوسهم كل
مساء وكل صباح ليروا ألا تزال في مواضعها أم طاح بها أحد موالهم
وخدامهم . وكما كانت الدولة مقسمة في العراق وفارس كقطع الشطرنج ،
كذلك كان الأمر في جميع الأقطار ، فهنا ملك الحمدانيين وهناك ملك
الإخشيديين إلى آخر ما هنالك من ضروب التوزيع .

ففي هذا العصر امتدت الأيدي إلى الخلفاء فهانت على الفرس والترك
معاطسهم وسبلهم^(١) . وبعد سكنى القصور التي وصفها ابن الخطيب البغدادي
وصفاً كأنه الكذب ، صار الخليفة كواحد من الناس ، مصيره في يد البويهيين
والترك ، يتقاتلون في عاصمته ولا يعنيه من الأمر إلا أن يلقب المتغلب باللقب
الذي يقترحه حتى ضربت السكة باسم بعض هؤلاء . وهكذا أمسى الخلفاء
كما قال الأخطل في بني يربوع قوم جرير :

مخلفون ويقضى الناس أمرهم وهم بغيب ، وفي عماية ما شعروا

أما تاريخ مصير الخلافة فيلخص بما يلي : كلما قوى واحد في هذا العصر
عنا له الخليفة وخلع عليه . لقب محمد بن طنج بالإخشيد أى ملك الملوك .
ولقب بعده ابن رائق بأمر الأمرأ وأمر أن يخطب له على المنابر ، ثم فاض نهر
الألقاب حتى صار أخيراً كل أمير مستقل يلقب نفسه . ومن يسأل عن خليفة

(١) المعاطس : جمع معطس وهو الأنف . والسبال : جمع سبلة وهي مقدم الحية .
وهذا التعبير كناية عن الذل والهوان .

أعزل ، لا مال ولا رجال !! أما هؤلاء الأمراء والملوك ، أو السلاطين المستقلون فكثيراً ما كانوا يذهبون ضحايا بعضهم بعضاً ، ومن عزّ بز^(١) . كما أن الخلفاء أمسوا يُجسّسون ويُقتلون صبراً كما فعل معزّ الدولة بالمستكني .
وأخيراً صار أمر الخلافة في أدنى الدرجات فسلبوهم كل سلطانهم ، ولم يتركوا للخليفة وزيراً ، ما بقي له غير كاتب يدير أملاكه .
ومن يستغرب ، بعد هذا ، قول المتنبي لسيف الدولة :

ويا عجباً من دائل أنت سيفه^١ أما يتوقّى شفرتي ما تقلّدا
ومن جعل الضرغام للصيد بازه تصيّدُهُ الضرغام فيما تصيّدنا

وينبئنا التاريخ أن سيف الدولة حاول امتلاك بغداد ولكنه لم يفلح ، فعاد إلى مستقره وأنشأ « حضرة » تضاهي حضرة بغداد في أيام عز الخلافة .
حقاً إننا في عصر صار كله « حضرات » كما قلنا ، وصح في حكامه قول الشاعر في الأندلس :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة منها أمير المؤمنين ومنبر

أما أشهر هذه الدويلات ، وأزهرها فكانت دولة السامانيين والبويهيين .
كان كل هؤلاء الملوك أو أشباه الملوك يقلدون الخلفاء القدامى ، لا خلفاء عصرهم الذين أمسوا نكرات ، ويطمعون بأن يزيّنوا « حضراتهم » بالشعراء والكتاب والعلماء ، وكل منهم ينافس الآخر . أما روى أن عضد الدولة أرسل إلى المتنبي من يسأله : مَنْ أجزل عطاء أسيف الدولة أم عضد الدولة ؟

وأخر من يعنينا أمره في الربع الأخير من هذا القرن ، هو الناصر لدين الله أبو القاسم محمود بن سبكتكين الذي قضى على الدولة السامانية ثم غزا الهند غزوات كثيرة وامتلك أكثرها . وما سبكتكين هذا إلا واحد من غلمان أبي إسحق البتكين ، قائد جيش غزنة في الدولة السامانية . ولى العسكر لما مات مولاه القائد واستقل بالملك . ولما مات قام بعده ابنه محمود . كان لقبه ، أولاً ، يمين الدولة فأبدل به لقب السلطان حين استبدّ بالأمر ، فكان أول

(١) من عز بز : مثل يضرب للسلب والغلبة .

من لُتْقَبَ بالسلطان في الإسلام ، ثم عظم أمره واستولى على خراسان وقطع منها خطبة السامانيين ، وقرض دولتهم .

٢ - الحالة الاجتماعية

ما أشبه الليلة بالبارحة !

كان المال هو الغرض الأول في هذا العصر ، فالخليفة يصفى أموال وزرائه ويقتلهم أو يصلبهم . أما قال أحمد ابن الخطيب وزير المنتصر لما خلع عليه للوزارة : « مَشَلَّى مَشَلُّ الناقة التي تزيّن للنحر » ^(١) .

كان الخلفاء يتركون وزراءهم وعمّالهم وولاتهم هملاً كالغنم في المرعى ، حتى إذا ما سمّوا ذبحوهم . وأخيراً جاءت نوبة الخلفاء أنفسهم فصار عمالهم يفعلون بهم كما كانوا يفعلون هم بغيرهم ، كما فعل بهاء الدولة البويهى بالطائع حين أخذ ما يملك ثم خلعه . أما وقف القاهرة المسمول في جامع المنصور ، وعليه مبطّنة بيضاء ، وقال للناس : تصدّقوا على فأنا من قد عرفتم .

أهمّل الخلفاء شؤون الدولة الجلسى ، وصارت الكلمة في القصور للخدم والنسوان ، وللعجّارى والغلمان . أما قال إسماعيل بن أحمد في غلام له : « يصلح للفراش وللهراش » . وقصة تَمِيل القهرمانه جارية المقتدر ، أما كانت تقعد للمظالم ، فتعرض عليها شكاوى الخاصة والعامة ، ويحضر مجلسها - محكمتها بلغة اليوم - الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم في حين يكون الخليفة غارقاً في مجلس اللهو والطرب .

قال بشار :

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزرق والعود

فقتل بهذا البيت ، أمّا في هذا القرن فصار المحنون والتهتك شيئاً لا يستحي به . وإذا ما قلّ مال الخلفاء والأمراء والولاة فتشوا عن الأغنياء من الرعية وأخذوا أموالهم لينفقوها في قصورهم .

(١) يقال : نحر الناقة وذبح الشاة .

وكثر في هذا العصر اقتناء السراري والغلمان فقلما خلا قصر من المئات منهم ومنهن . وهذا صاحبنا المتنبي ينظم قصيدة في رثاء يماك غلام سيف الدولة أو مملوكه ، ولا يتورّع أن يقول فيه :

وإن الذي أمست نزارٌ عبيدهُ غنيّ عن استعبادهِ لغريبِ

ولا أذكر لمن قرأت هذا القول : « رغبتني في الوزارة اقتناء الغلمان » .
وملخص القول أن هذا العصر كان عصر ترف في القصور والدور ، وهذا الترف جرّ إلى الفتن والحروب والمصادرات وكبس البيوت حتى صارت الثروة خطراً على صاحبها . فما قولك بوزير عنده من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ! أيدع هذا كبيرة أو صغيرة لا يرتكبها في سبيل ابتزاز الأموال ؟ !
إن هذا الترف الذي رافق الخلافة العباسية منذ هارون حتى صار الخلف يسعى جهده ليفوق السلف ، هو الذي جرّ إلى سقوط الخلافة في هذا العصر .
ثم عارض الخلفاء في ميدانهم هذا وزرائهم وأمراؤهم وعمّالهم ، أما الرعية فكانت كبش التضحية .

فالوزير ابن الفرات كان يستغلّ من ضياعه في كل سنة ألف دينار وينفقها . قيل إنه كان لا يأكل إلا بملاعق من البلّور ولا يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة . فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة . . .

وهاك هذه الحكاية الطريفة عن الوزير المهلبّي : « كان له ندماء يجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على أطراح الحشمة أو التبسط في القصف والخلاعة وهم : ابن قريعة ، وابن معروف ، والقاضي التنوخي وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان الوزير المهلبّي . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ، ولدّ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه ، وهبوا ثوب الوقار للعقار^(١) ، وتقبلوا في أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش ، ووضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها ، مملوءاً شرباً قطربلياً أو عكبرياً ، فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ، ويرش

بها بعضهم على بعض ، ويرقصون أجمعهم ، وعليهم المصبغات ومخانق البرم^(١) والمنثور^(٢) .

إن الثروة التي كانت في بيوت هؤلاء تكاد أخبارها لاتصدق . أما الشعب المسكين فكان في كل قطر طريد الفقر والبؤس ، تأكل رغيته الحياة المتكفلون بجمع المكوس والضرائب وليس من يسألهم عما يفعلون . لا يهتمهم إلا جمع المال ليدفعوا ما تكفلوا به للولاة ، ويصبحوا هم أغنياء يعيشون كالطبقة العليا . اقرأ رسالة بديع الزمان التي يشكو فيها البختري .

فالحليفة ، أو الإقطاعي الذي استبدّ بقطر من الأقطار ، ورجال هؤلاء وأهلهم ، وأتباعهم ، وأتباع أتباعهم ، أولئك كلهم هم الغارقون في النعيم ، أما الشعب المسكين فكله في جحيم ، وتجي منه الضرائب مثنى وثلاث ورباع ، وتتأبه المجاعات من حين إلى آخر ، فيلجأ إلى سلطان ربما سمع صوت الرعية ورثى لها ، وربما لا . كل هذا توضحه لنا رسائل بديع الزمان .

٣ - الحالة الأدبية

هذا العصر الذي سميناه عصر « الحضرات » تستطيع أن تسميه بحق زبدة الحقب . لقد نكبت فيه الخلافة بمجدها وعزها وأبهرتها ، ولكنّ الأدب كان له في كل مصر مرتع ، فلا تكاد تضيق مدينة بشاعر أو كاتب أو عالم حتى ينتقل إلى غيرها ليحل فيها على الرحب والسعة . لا بل كان هؤلاء الملوك الصغار يستقدمون إلى « حضراتهم » كبار الشعراء والكتّاب ويستزيرونهم . وحادث صاحب بن عباد مع المتنبي مشهور . ثم ألم يستقدمه كافور وابن العميد وعضد الدولة . . . أجل كثر في هذا العصر الملوك والوزراء المشبهون بالملوك ، فكثرت الرواد من أهل الأدب ورجال العلم ، فنفتحت المنتجعات القلمية في أسواق العواصم . . . واشتد التنافس بينهم فأدّى ذلك إلى تنافس الشعراء وكدّ أفكارهم ليأتوا بالبدع . فهذه حضرة سيف الدولة في حلب تتسع لأعظم شعراء

(١) المخانق : جمع مخنقة وهي القلادة . والبرم : ثمر شجر العضاة .

(٢) « يتيمة الدهر » جزء ٢ ص ١٠٦

العصر وكتابه وعلمائه ، وعلى حضرته هذه قس الحضرات الأخر ، وإن كانت دونها ، كالحضرات السامانية ، والبويهية ، والزيارية ، والغزنوية والسبكتكينية حتى الخلفائية . فهذا أحمد بن خلف ، على ضيق رقعة ملكه في سجستان كان معطاء يحب العلم والعلماء حتى قال فيه ابن الأثير المؤرخ : « وكان خلف مشهوراً بطلب العلم وجمع العلماء ، وله كتاب صنفه في تفسير القرآن من أكبر الكتب » . . .

خص « بديعنا » خلفاً هذا بمقامات ورسائل ، وقد يكون هو أول من فتح أبواب الرزق بوجه « الهمداني » حتى صار ملاكاً كبيراً في هراة ، كما يتضح من رسالة كتبها إلى أبيه يدعوه إلى الإقامة عنده في هراة قال : « فلم لا ينشط ! والله لا يضيع بذلك المكان درهماً إلا عوضته ديناراً ، ولا يعدم هناك داراً إلا أفدته ديناراً ، أخاف والله أن أموت وفي النفس حاجة لم أقضها ، ومنية لم أحظ ببعضها . لا يفعل سيدنا الشيخ والضحن بالولد أولى من الضن بالبلد . وقد رسمت لموصل كتابي هذا أن ينقده مائة دينار بشرط أن يخرج ، وأن يرتب له عمارة شتوية تسعه والشيخ الفاضل العم ، فليتفضلا ، وليقوموا ويرحلا . ويستصحب الأخ أبا سعيد ، وليأتني بأهله أجمعين ، فما يعجبني لقاء ليس له بقاء ، فإن لم يمكن استصحاب القوم فلا يتأخر بنفسه . فسيرد على خمسمائة نيران^(١) وألف أكار ، وأحوال منتظمة وأسباب مستقيمة » .

أرأيت ما أحرز هذا الأديب من ثروة !! خمسمائة نيران ، أي خمسمائة زوج بقر ، وألف عامل تعمل في أرض « سيدنا » الذي كتب في أول أمره إلى الخوارزمي يعاتبه بما يلي : « الأستاذ أبو بكر ، والله يطيل بقاءه ، أزرى بضيفه إذا وجده يضرب إليه آباط القلّة في أطمار الغربية ، فأعمل في رتبته أنواع المصارفة ، وفي الاهتزاز له أنواع المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف ، وإشارة بشطر الكف ، ودفع في صدر القيام عن التمام ، ومضغ الكلام ، وتكلف لرد السلام ... ولست مع هذه الحال وفي هذه الأسهل أتقرّر صف النعال » .

تلك كانت حال الأدباء الموهوبين ، يخرج أحدهم من بلده طريداً شريداً فيرد الحضرات فإذا لم ينفق في بلد يَمِّمَ بلداً آخر . ويظل على ذلك حتى يجد لبضاعته سوقاً ، فيلبس إذ ذاك الديباج ، ويركب البغلة ، ويقتنى العبيد ، ويبتاع الجوارى والغلمان . . . هذا إن لم يصبح وزيراً خطيراً له « حضرة » ينتجعها الأدباء والشعراء ، كما فعل ابن العميد والصاحب ففتحوا للأدب سوقاً كالتى فى حلب ومصر ، وكل بلد فيه ملك من هؤلاء الملوك الذين ينافس بعضهم بعضاً فى تزيين حضراتهم بالأدمغة الكبيرة والعقول الراجحة والعبقريات النادرة . لقد كان هبوط الخلافة فى القرن الرابع ارتفاعاً للأدب ، فلولا هذه الحضرات التى تدفقت منها الأموال كالأنهار لم يبدع الهمذاني مقاماته التى كان لها أبعد الأثر فى الأدب العربى .

إن عصرًا عملت فيه ألف ليلة وليلة ، وقصة عنتره ، لهُو عصر يستحق أن يُسمّى زبدة الحقب ، كما قال أبو تمام فى وقعة عمورية . . . ما رأيت عصرًا حفل بالأدباء والعلماء والشعراء كهذا العصر . أليس هو عصر المتنبي ، وابن العميد ، وابن عباد . والحوارزمي ، وبديع الزمان ، والتوحيدى ، والصابى ، وابن فارس ، وابن دريد ، والشريف الرضى ، وابن حجاج ، والشعالبي ، وأبى فراس ، وكشاجم ، والفارابى ، والأصفهاني ، والجوهري ، والزوزنى ، والأشعري ، والعكبرى ، والتهامى ، وابن يوسف ، وابن سينا ، والمعري ، والقالى ، والخرجاني ، والطبرى ، والمسعودى ، والرازى ، وابن النديم ، وابن عبد ربه ، وابن هانى ، والنمى ، والبغاء ، والوأواء ، وابن خالويه ، وابن جنّى ، وأبى على الفارسي ؟!

كان فى كل قطر ملوك ، وكان فى كل قطر رجال فأدّى هذا إلى إنتاج أدبى عظيم لم ير مثله فى العصور السابقة . إذا كان فى العصور الأولى بضعة عشر عظيماً ، فى هذا العصر من عظماء المملكة الأدبية عشرات ما ذكرت منهم إلا الرؤوس .

فابن لنكتك المحروم قال الهجاء المرّ كابن الرومى ، وابن حجّاج وابن سكرّة وغيرهم أعادوا عهد أبى نواس فى المجون ، ولولا أننا ننظر إلى آدابنا نظرة

الأثرى إلى « الأنثىكا » لقلت إن هذا العصر خير عصورنا الأدبية في الكمية والكيفية ، ولا أستثنى من القدماء إلا الجاحظ الذي لا يجارى ، وكلهم عيال عليه كما قال فيه ابن العميد .

كان الأدب في هذا العصر صورة صادقة للحياة ، وما المقامات إلا وليدة مظاهر اجتماعية أشار إليها الجاحظ من قبل . إنه البؤس الذي فتق الحيل لا بتزاز الأموال ، وإنه فساد الأخلاق الذي دعا البديع إلى تصوير الشذاذ والمتشردين ، كما صور حالة العلماء ومجالسهم ، والأغنياء الحديثي النعمة الذين يريدون مجارة كبار رجال الدولة في قصورهم .

أما الترف والنعيم فيصفه هو وغيره ، ولعل هذا التائق في الإنشاء هو من وحى صور الحياة الاجتماعية . فهذه الزر كشة فيه توفى إلى الحياة الاصطناعية التي كان يحياها المترفون . وبالاختصار كان هذا العصر عصر علم وأدب وشعر وتأليف وفلسفة ، ولا تنس أيضاً أنه عصر الفاطميين ، الذين عمروا العقول بفلسفتهم ونظرياتهم ، والأرض بقصورهم ومبانيهم للحكمة والعلم والتعليم .

الفصل الثاني

بديع الزمان في عَصِيرِهِ

١ - حياة بديع الزمان

١ - نشأته :

كنيته أبو الفضل ، ولقبه بديع الزمان ، واسمه أحمد بن الحسين . ولد في همدان واستقرَّ في خراسان ، ومات فيها بمدينة هراة سنة ٣٩٨ هـ .

أما لقب بديع الزمان فلست أدري كيف أحرزه . ما أحسب هذا اللقب إلا من صنعه ، أو من صنع صاحب اليتيمة لكي تتم له السجعة ويقول : « هو بديع الزمان ، ومعجزة همدان . . . » واتفاق اسمه مع اسم أبي الطيب يوقظ في نفسى الشك . ولعل هذا الشك قد تسرّب إليها من قراءتى أولى رسائله الموجهة إلى الفضل بن أحمد الإسفرائينى ، وهو أول من استوزر لابن سبكتكين ، فاتح السند والهند ، ومبيد الدولة السامانية التى بسطت سلطانها على فارس زمناً حتى استطال الناس مدتها . وتعجبوا من طول بقائها ، وقال فيها محمد بن زيد الداعى : « ما أشبه الدولة السامانية ، فى طول ثباتها وقلة كفاتها ، إلا بالسماء التى رفعها الله بلا عمد . »

قال البديع فى رسالته إلى الإسفرائينى : « إني عبد الشيخ واسمى أحمد ، وحمدان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد . » ومن يصل بنسبه إلى مضر ، وهو فارسى لا شك فيه ، لا يبعد أن يطبّق المفصل ليكون له اسم شاعر الدهر أبى الطيب . . .

هذا ما يبدو لى فى اسمه . أما الذى جعلنى أشك فى اسم أبيه أيضاً ، فهو قول الحاكم أبى سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست جامع رسائل البديع .

قال : حين بلغ الرسائل التي تبادلها البديع وأبوه : « ولوالده إليه كتب ورقاع أنشأها هو - أى البديع - ونسبها إلى والده ليقرأها الأفاضل من الكتاب فيستدلّوا بها على فضل والده . »

ومن يفعل هذا ، كما قال معاصره ، لا يخشى التصرف باسمه واسم أبيه ليأتى اسمه كما يتمنى ويرغب . وهب هذا هو اسم أبيه فلا شك عندى فى أنه بدون ال . أعرف جيداً أن الاسم لا يقدّم ولا يؤخّر ولكنها فكرة عرضت لى فلم أبقها فى صدرى .

كان معلمه الأول الأستاذ أبا الحسين أحمد بن فارس ، وفى الثانية عشرة غادر بلده . ولما بلغ الرى اتصل بالصاحب بن عباد غلاماً ، ولزم دار كتبه ، فطبع على غرار تلك المدرسة وتأثر أساليبها . وهب ذاكرة قوية ، وحافظة نادرة ، فكان قفلة لا يفلت من خاطره ما يعلق به . ولعل هذا هو الذى حمل معاصريه على القول فيه :

« إنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم منها حرفاً . وينظر فى أربع أو خمس أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره ، نظرة واحدة ثم يملئها عن ظهر قلبه ، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطره ، ثم هلم جراً إلى الأول ويخرجه كأحسن شىء وأملحه . » إنها مبالغات نسبوا مثلها إلى المتنبي والمعري وأبى تمام ، وهى عندى إلى الحكايات أقرب منها إلى التاريخ الرصين ، فليست الأذهان دفاتر ، ولا آلات تصوير شمسية حتى تحفظ وتلتقط آثار الأدباء كما هى .

أما قولهم : « وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطره » فهو مبنى على تلك الرسالة التي رواها لنا البديع فى مناظرته أبا بكر الخوارزمى ، ولعل هذه الرسالة هى التي أوحى إلى الحريرى مقامتيه : المغربية والقهقرية .

ثم غادر حضرة صاحب وقصد جرجان ، حيث خالط علماءها وهم من الإسماعيلية ، فعاش بينهم حيناً مقتبساً من علومهم وفلسفتهم الباطنية . وانصرف

من عندهم إلى نيسابور فكانت له معركة أدبية فاصلة مع شيخ كتاب عصره أبي بكر الخوارزمي ، فهبت ريحه واغتنمها . . . وفي نيسابور أُملي مقاماته المشهورة . ويزعم المؤرخون أنها أربعمائة عدا ، ولكن هذا غير صحيح . لم يقل ذلك أحد غير الهمداني نفسه ، حين قال من رسالة ينتقد فيها قصيدة للخوارزمي :

« ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتریات ، ثم عرضها على الأسماع والضماير ، وأهداها إلى الأمصار والبصائر ، فإذا كانت تقبلها ولا ترجيها ، أو تأخذها ولا تمجها ، كان يعترض علينا بالقدح ، وعلى إملائنا بالجرح ، أو يقصر سعيه ويتداركه وهنه فيعلم أن من أُملي من مقامات الكدية أربعمائة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق بكشف عيوبه ، والسلام . »

وفي هذا المعنى أيضاً كتب رسالة تهديد ، أو إنذار بالحرب ، إلى أبي المظفر في شأن أبيه أبي الحسين البغوي الذي لا يعجبه نثر البديع ، فراح ينذره بأن من أُملي من مقامات الكدية أربعمائة مقامة حقيق ألاّ يهاج لكشف عيوبه .

واستطاب البديع الأسفار بعد تغلبه على أبي بكر ، ولا سيما بعد أن مات هذا ، فراح ينتقل من حضرة إلى حضرة ، فجاب خراسان وسجستان وغزنة وكرمان متكسباً بأدبه من شعر ومثنوي : مقامات ورسائل وقصائد ، فحسنت حاله بعد ما كانت حاشيته رقيقة يوم ورد على الخوارزمي أشعث أغبر منخرق السربال .

فاز البديع بأعطيات الملوك والوزراء والأمراء والرؤساء ، وكأنه رأى هراة نقطة الدائرة من تلك الحضرات فألقى فيها عصا الترحال ، وسعد جده فصاهر أحد أشرافها فاقتنى الضياع ومن فيها ، حتى كتب إلى والده يقول له ، كما مرّ ، تقع عينك على خمسمائة نيران وألف أكار . »

وحكى أنه مات مسموماً ، وقيل إنه مات بداء السكتة ، ودفن حياً .

ب - في هراة :

قضى الأستاذ أطيّب أيامه في هراة ، ولأجل هراة الجميلة لم يردّ على أمّه ، بل هجاها ، كما سيمربك . . . ولا بدع أن يطلق همدان من وقع في شرك هذه البلدة الجميلة التي يصفها ياقوت في معجم البلدان : « هراة مدينة عظيمة مشهورة من مدن خراسان . لم أر بخراسان عند كوني بها في سنة ٦٠٧ مدينة أجلّ ولا أعظم ، ولا أفخر ولا أحسن ، ولا أكثر أهلاً منها . وفيها بساتين كثيرة ، ومياه غزيرة ، وخيرات كثيرة ، محشوة بالعلماء ، ومملوءة بأهل الفضل والثراء . »

وكان الأستاذ هناك صهر البلد ، فقررت عينه بعد تلك السخونة . كانت أيامه فيها حلوة لولا أبو البختری الذي كدّرها عليه . ومع ذلك قضى في أخريات العمر حياة لا كلفة فيها . ثم مات بغتة فاستراح من الأوجاع والآلام النفسية والجسدية ، ولكن تلك الفرعة التي لقيها في القبر - إن صح أنه دفن حياً - قد كفّت ووفّت .

أما حياته في هذه المدينة الغراء فقد رسم لها الشيخ ، أولاً ، صورة جديّة ثم أتبعها بصورة أخرى هزلية . كتب البديع إلى الوزير الميكالي ابن أبي بريدة يقول :

« ولو رأي الأستاذ وأنا في قميص بأذنين ، وقباء ضيق الردين ، وعمامة كقبّة الحجاج ، وخفّ فاسد المزاج ، أعلاه جراب ، وأسفله خراب ، على برزون عبدی التقطيع يرقص كالرضيع ، لعلم كيف تجرى الفرسان ، وكيف يمسح الإنسان . »

ومع ذلك ، وإن كان الأستاذ على هذه الحال التي وصفها ، فهو يؤثر أن يظلّ بين أكاريه وبقراته ، ويعتذر في آخر هذه الرسالة عن الشخصوس إلى « حضرة » الميكالي حتى يقول في ختامها :

« والله لقد رأيت يدي مجّت أفواه الأمراء والوزراء ، وقد نظرت بمنة ، فلم أر إلا محنة ، وعطفت يسرة ، فلم أر إلا حسرة . »

رحم الله أبا الطيب الذي قال :

وإذا الشيخ قالَ أفَ فما مـلّ حياةً ، ولكن الضعف ملا

الغنى بطرُ . كان الهمداني يقطع الفلوات إلى الحضرات ماشياً غالباً ، وراكباً حيناً ، مدّعياً بالسلب تارة على الأعراب ، وطوراً على الأتراك . وها هو هنا يعتذر عن الشخوص إلى « حضرة » الوزير الميكالي . وكأني أتخيله بعد ما كتب الرسالة السابقة ، يطويها ويضعها تحت الوسادة ، ثم يأخذ ورقة أخرى ليدبج رسالة ثانية إلى صديق يصف له بقرة ويسأله أن يفتش عنها ويشتريها له . وكأني أسمع يبربر متأففاً عند ما همّ بكتابة الرسالة : « استراحة البقر خير من زيارة البشر . . . » ثم ينكب ليكتب ما يلي :

« وقد احتيج في الدار إلى بقرة يحلب درّها ، فلتكن صفوفاً تجمع بين قعبين في حلبة ، كما تنظم بين دلوين في شربة ، وليملاً العين وصفها كما يملأ اليد خلفها ، وليزن مشيها سعة الذرع كما يزين درها سعة الضرع . ولتكن عوان السنّ بين البكر والمسنّ ، ولتكن طروح الفحل رموح الرحل ، وليصف لونها صفاء لبنها ، وليكن ثمنها كفاء سمنها ، ولتكن رخصة اللحم حمة الشحم ، كثيرة الطعم سريعة الهضم ، صافية كالجون فاقعة اللون ، واسعة البطن وطيبة الظهر ، ممتلئة الصهوة فسيحة اللهوة ، لا تضيق بطنها عن العلف فيؤديها إلى التلف ، ترد الهول ولا تخافه ، وتشرب الرنق ولا تعافه ، واجهد أن تكون كبيرة الخلق لتكون في العين أهيب ، ضيقة الخلق ليكون صوتها في الأذن أطيب ، واحذر أن تكون نطوحاً أو سلوحاً ، وإياك أن تبعثها ملوحاً أو رشوحاً . ولتكن مطاوعة عند الحلب لا تمنع نفسها ولا تكثر لحسها ، وداهية في الرعي لأقرب سعي ، حمقاء على الحوض كالنعجة لا تأمن من البعجة ، ألوفة للرعي الذي يرهاها ، مجيبة لصوته إذا دعاها ، مهتدية إلى المنزل بغير هاد ، ذاهبة إلى المرعى بغير قياد . ولا أظنك تجدها ، اللهم ، إلا أن يمسح القاضي بقرة ، وهو على رأى التناسخ جائز . . . »

فاجهد جهدك وابذل ما عندك ، واجعل اهتمامك أمامك وحرصك قدامك

يوفق سعيك ويحسن هديك ، واستعن بالله تعالى فإنه نعم المولى ونعم المعين والسلام . »

حقاً لو وجدت هذه البقرة البديعية لاستحق صاحبها الوسام الزراعى من الدرجة الأولى ، وسهرت الدولة على سلامتها أكثر من البشر . . . الحمد لله الذى جعل من هذا السبب مزارعاً فخصّ البقر بالتفاته أدبية كريمة لم يرمقها بها أحد من قبل ، وقلّما جاد هو بمثلها على إخوانه البشر . . .

٢ - رأى الكتاب فيه

لا تعجبني تلك الجيوش من النعوت الحرارة التي كان يحشدها الشعالي حين يترجم لأدباء اليتيمة وشعرائها . فكأنه كان يفتش عن ألفاظ وتعبير لينظمها صفوفاً عسكرية تعرض في ميادين الأذهان ، وتؤدي التحية لكل ذي فضل . وهاك نموذجاً مما قاله في المترجم له : « هو بديع الزمان . ومعجزة همدان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطار ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يدرك قرينه في طرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته . ولم ير ، ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره . فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب . . . »

ألا ترى معي أن صاحبنا الشعالي يكيل المدح بالمدح ، وأن مثل هذا الكلام أقرب إلى الهذر منه إلى الجحد . عفواً لقد جاءت السجعة ، فكرهت أن أقول لها ما قاله جرير لصائدة القلوب ^(١) . . .

أما الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن دوست ، جامع رسائل الهمداني فكان كلامه موزوناً تقبله النفس . قال في مقدمة الرسائل يصف البديع للذى سأله جمع آثاره : « وكان أبو الفضل طلق البديهة ، سمح القرينة ، شديد المعارضة ، زلال الكلام عذبه ، فصيح اللسان عضبه ، إن دعا الكتابة أجابته

(١) يشير المؤلف إلى قول جرير :

طرتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام

عفواً ، وأعطته قيادها صفواً ، أو القوافي أتمه ملء الصدور على التوافي . ثم كانت له طرق في الفروع هو افترعها ، وسنن في المعاني هو اخترعها . . . »
 هذا كلام رجل يفصل الثوب على القدر فيقف عنده القارئ متأملاً . أما القول : « بديع الزمان ، ومعجزة همدان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطار » ، فعبارات تحتوى على كل شيء ، وتكاد تكون لا شيء .

٣ - خلق البديع وخلقته

وصفه ابن دوست بقوله : « وكان أبو الفضل وضيّ الطلعة ، رضى العشرة ، فتان المشاهدة ، سحرار المفاتحة ، غاية في الظرف ، آية في اللطف ، معشوق الشيمة ، مرزوقاً فضل القيمة . » أما صاحب الشيمة فيقول في هذا : « وكان مع هذا كله مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ، ناصع الظرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الد ، حلو الصداقة ، مرّ العداوة . »

وأما البديع نفسه فيلقى بعض الضوء على شكله وطباعه ، حين يقول معتذراً في إحدى رسائله إلى رئيس استقدمه إليه ، إنه : « همدانيّ المولد ، جببكيّ المنبت ، ناريّ المزاج ، ضعيف البنية ، يابس العظام ، حاد الطبع ، حديث السن . » إلى أن يختم هذه السلسلة بقوله : « ألا يرحم لحمي الضعيف في هذا الهواء الكثيف ؟ والأمراض لا تعبث من عبده بشحم ولحم ، إنما تصل إلى العظم فتتنقصه ، وإلى الروح فتستخلصه . »

وفي رسالة أخرى إلى رئيس بلخ وعميدها يصف أسلوب عيشه بعد الثلاثين فيقول : « ورقات تدرس ، وشجرات تغرس ، وشويهاات تحرس ، واللبن الرائب ، والبرّ الخليط ، وعريش كعريش^(١) موسى . »

إنها حياة فلاح لا حياة رجل يملك ألف رقبة بشر وألف رأس بقر . . . كما قال لوالده . ولعلّ الأستاذ هنا ، على عادة ذلك العصر ، يخفي ما يملك

إما خوفاً من الطمع فيه ، وإما طمعاً بأعطية من هذا الرئيس العميد . وعلى كل حال أرى أن الخلتين : طالب علم وطالب مال ، قد اجتمعتا فيه ، وصاحباهما لا يشبعان .

كان شيخ همدان في صباه وشبابه أخا سفر جواب أرض . جاء حضرة صاحب ابن اثني عشر ولزمها حتى اشتد ساعده ، ولعله تركها مغاضباً لأنه في إحدى رسائله وقصائده يقف من صاحب موقف النابغة من نعمانه . ثم ظل ينتجع الحضرات حتى بعدما أثرى واستقر في هرة . لقد طاب له المقام فيها ، ولكن « الحيرى » و « ابن البخترى » والحياة كانوا يقضون مضجعه مطالبين بدفع الضرائب ، والشيخ تعود أن يقبض لا أن يدفع . . . ولهذا ترى نيران الشكوى تتصاعد من رسائله سوداء قائمة كدخان الأتون في عدائه الأول . . . ومن شدة إلحاح هؤلاء عليه نراه يختم رسالة لهذا العميد : « وأسأل الله خاتمة خير وعاجل وفاة ، إن بطن الأرض أوسع من ظهرها وأرفق بأهلها . » كما يقول في رسالة أخرى : « والله لولا يد تحت الحجر ، وكبد تحت الخنجر ، وطفلة كفرخ يومين قد حببت إلى العيش ، وسلت عن رأسي الطيش ، لشمخت بأنفي في هذا المقام ، ولكن صبر جميل والله المستعان . »

ولقد وصف هو نفسه وصدق في الوصف حيث قال :

خُلِّقْتُ كما ترى صعب الثقاف	أردّ يد المعاند في الخلاف
ولى جسدٌ كواحدة المثاني	له كبد كثالثة الأثافي
هلمّ إلى نحيف الجسم مني	لتنظر كيف آثار النحاف

كان العرب يقولون غليظ الكبد . أما صاحبنا فصور تلك الغلاظة أصدق تصوير . إنه سبّاب شتّام ، همّاز غمّاز تخشى بواده ، وحسبك منه ما رواه عن نفسه فقال : « قدمت على صاحب ولى اثنتا عشرة سنة ، فيينا أنا عنده في دار الكتب إذ دخل أبو الحسن الحميرى الشاعر ، وكان شيخاً مبعجلاً ، فقالوا له : إن هذا الصبي لشاعر ، يعنوني بذلك . » أما الشيخ فنظم له بيتين

مهذبين ليختبر ما عنده ، فأجابه البديع جواباً بذيئاً لا يصدر إلا عن الرعاع .
ومن يطلع على نثره وشعره الصاخبين يرى أن شيخنا ، إذا استولى على أمد
الغضب ، يستعمل الخاء والراء وكأنه ينثر المسك والند والعنبر . . . غضوب
حتى الثورة المجنونة . وكما أن الفرن والتنّور لا يخرجان الخبز رافخاً إلا إذا حميا ،
كذلك كان بديع الزمان .

قال الحجّاج في جرير : « إنه لجرو هراش » ولعل هذه تصدق على
شيخ همدان . فهو أناني لا يرى فوق نفسه من مزيد ، والويل لمن يفضل
الحوارزى عليه ، فما عنده له غير النار والكبريت . وحسبك أن تقرأ قوله
في الرسائل والمقامات : « من لقينا بأنف طويل قابلناه بخرطوم فيل »
لتدرك مبلغ شراسته ، وهذا شأن كل من يضخم أمره بعد عسر ، ويستغنى
بعد قلّة . إن هذه الحصال الطاغية ، والاعتداد بالنفس الذي يجرّ إلى الخطّ
من قدر الآخرين ، كانت تقلقل دائماً مركز الشيخ ، فينتقل من حضرة إلى
حضرة تاركاً في كل واد أثراً من ثعلبة . . . قال في رسالته لأبي نصر المرزيان
يوضح له لماذا خرج من جرجان ووقع في خراسان : « أما السبب فهو أن
أناساً غيّرُوا السلطان ولا أعلم كيف احتالوا ، وما الذي قالوا . . . وأشار على
إخواني بمفارقة مكاني ، وبقيت لا أعلم أئمة أضرب أم شامة ، ونجداً أقصد
أم تهامة . ونظرت فإذا أنا بين جودين : إما أن أجود ببأسي وإما أن أجود
برأسي ، وبين ركوبين : إما المفازة . وإما الجنازة . وبين طريقين : إما
الغربة ، وإما التربة . وبين راحلتين : إما ظهور الجمال ، أو أعناق الرجال . »
لم يكن الدهاء ينقص شيخنا الهمداني ، فهو واسع الحيلة ، طبّ كعنترة
بأخذ الأمراء واله زراء . يصيب مقاتلتهم - ولو مؤقتاً - يصمّمهم بسجعه ،
وينصب لهم شرك الإطناب ، وهم أبلة من الحمام فيسقطون فيها .

أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

وهكذا لم يبق ملك منهم إلا قرّص أبو الفضل عجين «حضرتة» وجدح منه
سويقه . . . ولا أستبعد أن يكون مات مسموماً ، لأنه لم يسلم من لسانه أحد .
فالأنانية هي القطب الذي دارت عليه رحي حياته ، أقلقه حب الظهور

extremely Top. V.V. Top

Top

وأزعجه ، فلا يكاد يسمع أن أحداً قدّم عليه كاتباً حتى يهبّ لمقاضاته كأن له عنده ديناً ، فتراه في كل مقام يمجّن ويمزح ويتهمك ، بل يكشف العورات ليرينا أنه قادر على القول في كل غرض ، فهو من هذه الناحية أسلط لسان وأقذع هجاء ، بل هو أحسد من مشي عليها . وحسبك منه أنه أراد أن يضع نفسه فوق الجاحظ كما سترى ، فهو لو يستطيع أن يمحو معالم العبقريّة من الدنيا حتى لا يبقى إلا هو لفعل . وقد أحسن ابن شهيد حين سمى في « التوابع والزوابع » . شيطان البديع « زبدة الحقب » . فشيخنا ، غفر الله ذنوبه ، كان كبطل مقاماته يدور مع الزمان كيفما دار ، فكل من يتغلّب وجبت عليه مدحته ، يهمله أن يفوز ولو بشيء من الأسلاب ، ولتكون فيما بعد كلمته مسموعة عند أولى الأمر ، فيوصيهم بهذا ، ويسألهم قضاء حاجة ذاك ، لينعم بجاه ونفوذ بين الجماعة الذين حلّ عندهم .

٢٢٢ كان يتشيع ويتسنن مطابقاً مقتضى الحال ، ولا لوم عليه ولا حرج ،

ولعل الأبيات الآتية من شعره تصور لنا ما انطوى عليه :

ويكـ	هذا الزمان زور	فلا يغرنك	الغرور
زوق ، ومخرق ، وكـل ، وأطرق	واسرق ، وطـلبـق ، لمن تزور		
لا تلتزم حالة	ولكن در بالليالي كما تدور		

ولا بدع أن أتى هذا ممن لا يظنّ بالناس إلا شرّاً ، فيقول لنا في ديوانه :

كذلك الناس	خداع	إلى جانب	خداع
يعيثون	مع الذئب	ويكون	مع الراعي

وكانّ الشيخ ، غفر الله له ، قد علم أنه فظ غليظ القلب والكبد ، وكان يتوقع من الأيام أن تكسر شرّته وتعدّل أخلاطه ، ولكنه يئس أخيراً من كل خير طلبه عند الليالي ، فصاح هذه الصيحة المؤلمة :

خليلىّ واهاً ليليّ وصرفها لقد ثقفت إلا كعوب خلائقي

٤ - شخصيته

يقرر البديع قضية يسميها الخراسانية الهمدانية، وكأنه مسلم بها، في رسالة إلى الوزير أبي نصر بن أبي بريدة، وهي منشورة بكاملها في مختارات الرسائل ومنها يقول: «وإن فعلت فلأني خراساني: وأعز موجود في الخراسانية الإنسانية.»

ويوضح هذا أكثر في رسالة أجاب بها أستاذه أحمد بن فارس، وهي منشورة برمتها أيضاً: «واثنان، أيده الله، قلما تجتمعان: الخراسانية والإنسانية. وأنا وإن لم أكن خراساني الطينة فإني خراساني المدينة، والمرء من حيث يوجد، لا من حيث يولد، والإنسان من حيث يشب، لا من حيث ينبت، فإذا انضاف إلى خراسان ولادة همدان، ارتفع القلم، وسقط التكليف. فالجرح جبار، والجاني حمار.»

تري ما خطب خراسان وهمدان؟ يروى الجاحظ في «بخلائه» حكاية ديك مرو، وحكاية خاقان بن صبيح عن مسرعة رجل من أهل خراسان وفيلتها الدقيقة، والعود المربوط فيها، وما دار بين المروى والخراساني من دروس اقتصادية ختمها خاقان بقوله: ففي تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس - أي في البخل - وفضل أهل مرو على سائر أهل خراسان. «ولست أظن البديع يعني غير هذا بكلمة «الإنسانية». أليس هو في صراع دائم مع العمال والجباة، ومع أبيه وعمه، فبعد أن أصبح ذاك الثرى صاحب الخمسمائة نيران وألف أكسار لم تجد نفسه على أبيه إلا بمئة دينار، ولا تدفع له إلا بشرط أن ينتقل إلى هراة، والشيخ لا يترك وطنه، فكأن الولد يعجز أباه حتى لا يعطيه شيئاً من ثروته الطائلة.

ويظهر أن الوالد عجز عن أن ينال شيئاً من ولده الذي تكنى بأبي الفضل، ولا فضل، فاستكتب أمه رسالة في هذا الموضوع. ولكن بديع الزمان صخر لا يؤثر به شيء حتى (مرداة) عمرو بن كلثوم الطاحنة. فما رد عليها، بل قال فيها هذه الأبيات الثلاثة:

وعجوز كأنَّها قوسٌ لامٌ فلقوها من نبعة شرٍّ فلقِ
 كاتبتي شوقاً إلىَّ وقالتُ : أخذَ اللهُ يا بنيَّ ، بحقِ
 قلتُ لا أستطيعُ تركَ بلادِ قد وفي اللهُ في ثراها برزقي

وكتابه لأستاذه ابن فارس أليس شهادةً صارخةً على الخراسانية والإنسانية؟! لماذا يشكو الدهر ابن فارس؟ أليس لأنه في خصاصة وبلغه أن تلميذه أمسي من الأغنياء والأستاذ في حاجة إلى ما يتبلَّغ به، فما كان من الأستاذ البديع إلا أن أجابه عن الكلام بكلام ، واحتجَّ بالخراسانية والهمذانية بكل وقاحة . . .

هذه واحدة وهي البخل وهو شر الخصال ، وأضف إليها واحدة أخرى أبشع منها وهي الكبرياء ، فالأستاذ أبو الفضل ، غفر الله له ، بلغ بالكبرياء حد التعجرف والطغيان ، « فالقيام له » في المجالس ، عند القدوم والذهاب ، أمر لا هوادة عنده فيه . بدأ بذلك عند الخوارزمي ، وكانت عاقبته تلك المعركة الأدبية التي تجاوز فيها البديع حدود أدب اللسان ، فكان أشبه بأبناء الشوارع ... عتب الأستاذ على أبي بكر لأنه « دفع في صدر القيام عن التمام » أي لم تنتصب قائمة الخوارزمي الانتصاب التام ، حين استقبل البديع ، فشنَّ هذا عليه الغارة .

وهذا « القيام » يرافقنا في رسائله . فها هو ذا يدبج رسالة إلى أبي سعيد بن شابور لأنه قام له حين دخل عليه ، ثم ترك القيام حين خرج من عنده ، فحشد عبارات اللوم والتعنيف ، قال : « فأول ما أعتب عليه قعوده في المجلس عمّا بذله في أوله ، وثناقله في عجز الأمر عما حرص عليه في صدره ، من توفير سلام ، وإيفاء قيام . . . على أتى دخلت عليه وأنا أحمد الهمذاني ، وخرجت من عنده وأنا أحمد الهمذاني ، فإن كان قيامه قد سرَّ ، فقعوده ما ضرَّ . وبلغني أن كاتبه أبا الفضل بن نصرويه حكم للخوارزمي علىَّ بالفضل .

فقلت ولم أملك سوابق عبرتي متى كان حكم الله في كرب النخل

وأما ذلك الوقح الوسخ ولا أعرف اسمه ، وأحسب أن كنيته أبو الفضل ، أو أبو الطاهر ! وما كان فهو اسم مفخَّم ، ومعنى مرخَّم . فما أحوجه إلى سونيز عقل ، وسعتر فطانة ، حتى تحلَّ مكالمته . وما كان أحسن حال السادة عند اللقاء حتى

يكون حاله . نعم استنتت الفصل حتى القرعاء . « وفي ختام هذه الرسالة يعين مكاناً للاجتماع عند الشيخ أبي القاسم ليعتذر إليه عما جرى من تقصير بحقه .

وهناك مكتوب آخر يوجهه إلى القاضي أبي نصر بن سهل أمر من هذا

لهجة إذ يقول : « ما للقاضي ، أعزه الله ، يلقاني بوجه كأنه الزقوم ، ويراني

فلا يقوم ؟ ! أنا أسأله أن يقتدى بغيره لا أليست لقيامه أهلاً ! لعن الله

أكثرنا جهلاً ، وأقلنا فضلاً ، وأحسننا أصلاً . تلك القلنسوة ليست بأول قلانس

الحكام ، وتلك الشيبة ليست بأول شيبة في الإسلام ، ونحن نخ . . . في خير

من تلك القلنسوة ، ونصفع خيراً من تلك القمحة^(١) . فليحسن العشرة معي

من بعد ، ولست من رعيته ، وليجمل الصحبة في ظاهره إن لم يحملها من نيته .

أو فليفعل ما شاء فإنها شقشقة هدرت ، والحميل أجمل والسلام . »

ألا ترى معي أن الأستاذ يفرض نفسه على البشرية فرضاً ، وأنه يشبه

بشاراً من هذه الناحية كل الشبه ، فهو ينحى باللوم والسب والشتم على من

لا يرضى غطرسته وكبرياهه ، أو يفضل الخوارزمي عليه .

قد يقال لماذا لم يعنك إلا بنخل الأستاذ وكبرياؤه ؟ الجواب أن كبرياء

الأستاذ خلقت رسائله النارية ، وبخله وحبه المال أبدع مقاماته الطريفة ،

كما سترى .

Vo Imp .

الفصل الثالث

جوانب بديع الزمان

١ - آثار البديع

ليس لبديع الزمان من آثار غير الرسائل والمقامات والديوان ، وهذه كلها لو جمعت في كتاب واحد لما بلغ حجمه حجم ديوان البحترى ، ولكن الأدب ليس كالحطب ليناع بالقناطير ، وهو لا يقاس بالكيلومترات كالصحارى ، فهذه الآثار ، على صغرها ، بوأت الرجل منزلته العليا في الأدب العربي ، فكان بعيد الأثر فيه .

وليس هذا النثر ولا هذه الرسائل من مواليد القرن الرابع . فالسجع قديم الميلاد كبير السن ، والرسائل هي لغة الناس الطبيعية ، وقد استعملوها حين عرفوا الورقة والقلم . كانوا يعتمدون في بدء أمرهم على الوفود ، فيهيئ الزعيم بضع عبارات يعبر فيها عن غرض الجماعة الذين استسفروه ، ثم نابت الرسائل عن وفود القبائل . كانت الرسالة العربية ، في بدء عهدها ، وجيزة قصيرة ، صريحة واضحة ، لا تفخيم فيها ولا مداورة ، كرسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : « أما بعد ، فقد ظهر من مالك ما لم يكن في رزقك ، وما كان لك قبل أن أستعملك ، فأنتى لك هذا ؟ فاكذب إلى من أين لك هذا المال ؟ وعجل . »

وكما كتب أحد الخلفاء إلى أحد عماله : « أحببناك فولييناك ، اختبرناك فغزلناك ، يدك في الكتاب ، رجلك في الركاب ، والسلام . »
وكما كتب غيره إلى عامل له ينذره : « كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما تعتدل وإما تعتزل ، والسلام . »

ولما آلت إمامة رسائل الدواوين إلى الفرس المستعربين طال سَفَرُ الكلام،
 وتمطت المقدمات . فطوّوا ما شاؤوا ، وأكثروا التبجيل والتعظيم . ومشت الرسالة
 مع الدهور والعصور فصارت آلة الوزارات وسلاستها ، واستقل ، إذ ذاك ،
 أدب الرسائل ، فوضعت له خطط ورسوم اتبّعها كتّاب الدواوين وغيرهم
 من المترسلين . ولما جاء القرن الرابع عُنِيَ مشاهيره بتجويدها . فدبّجوها وزوّقوها
 ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولما كان السلطان لمن ينتزعه انتزاعاً أخذ هؤلاء
 الكتاب المترسلون يبجلونهم ويعظمونهم طمعاً بما عندهم من نهاب وسبايا ،
 وخوفاً من سيفهم المسلول ولا يدري متى يقع ويحصد .
 وكان البديع من فرسان هذا الميدان فكتب وحبر ، وعرض بضاعته في
 الأسواق الأدبية فراجت . وهبت ريحه حين ناظر أبا بكر الخوارزمي ، شيخ
 المترسلين في ذلك الزمن ، فراح ينتقل من حضرة إلى حضرة وفي خُرْجه رسائله
 ومقاماته وقصائده . كان له الإبداع والخلق في المقامات ، والتفوق في الرسائل ،
 والسوق الماشية في الشعر . . .

١ - رسائله :

البديع في رسائله يصح فيه قول الأخطل في الفرات :

وما الفرات إذا جاشت حوالبه في حافتيه وفي أوساطه العشرُ
 مسحفرٌ من جبال الروم يستره منها أكافيفٌ ، فيها دونه ، زورُ

هذا هو بديع الزمان في رسائله . هائج صائل ، يكسر الجرّة خلّف المولى
 ويسبّ أباه وأمه إذا اقتضت الحال ، وينقش بساط من يلي الأحكام بشفتيه ،
 ويسجد لمن عنده المال . . . كنا نفتش ، حين ندرس شاعراً ، عن رسالة
 نستدلّ بها على ما عنده من طباع وأخلاق وشيم ، أما الآن فنحمد الله على
 أن أمامنا مجموعة رسائل تدلنا على كل ما عند صاحبنا الهمداني .

فهذا الزخرف والنقش والتروير ، وهذه المبالغة والتواضع لمن يمدح ، أو لمن
 يطمع منه ، ولو بكلمة ثناء ، دليل صارخ على ميراثه الجنسي ، فهو في
 سبه وشتمه في هذه الرسائل ، أشبه بالساسانيين ، فأخلاقه أخلاقهم ، وبضاعته

والنوادير فهذه كانت ولا تزال ، وقد نجد اليوم رجالاً كأنهم بطل بديع الزمان يحتالون وينصبون ، ويتنقلون من مكان إلى مكان ، وفي كل مكان تراهم غيرهم ، ولكن إذا فتشنا مقاماته الإحدى والحسين رأينا في الكثير منها أشياء أخذها البديع من عند غيره ، وجلاها وأبرزها بأسلوبه المصنوع فصارت كأنها له .

١ فلنبداً باللاحظ . رحم الله ابن العميد الذي قال فيه : « كل الذين جاؤوا بعده عيال عليه . » فالمقامة العلمية التي يصف فيها البديع العلم هي معارضة لوصف الجاحظ للكتاب ، ولكن أين البديع المليح من ذلك الوجه القبيح !! فقد قصر فيها عن أبي عثمان تقصيراً فاضحاً .

ومن قرأ بخلاء الجاحظ ووقف على حديث خالد بن يزيد عرف أن شيخنا الجاحظ هو أول من حدثنا عن القصص والتكديس ، والمكدين ، وأن البديع ، غفر الله له ، أخذ هذا الحديث أيضاً وفصله مقامتين : الوصية ، وللوصافية . وما أظن قصيدة أبي دلف الخزرجي المشهورة في الساسانيين إلا من موحيات الجاحظ . وفي المقامة السجستانية سياء من حديث خالد أيضاً ، وهناك ومضات آخر نلمحها هنا وهناك .

٢ وإذا انتقلنا إلى المقامات الأخرى رأينا الهمداني يغير في التي سماها المقامة الحميرية على أبي نواس وغيره . فبديع الزمان في وصف الحمرة ومجالس اللهو ، وتهافت الشباب على الملذات ووصف الغلمان يريد أن يكون له في النثر ما كان لأبي نواس وغيره في الشعر . ولا عجب فنثر هؤلاء هو شعر طليق ، كالذي نسميه اليوم بالشعر المنثور . ولم يقف البديع عند هذا الحد بل جمع في المقامة الحميرية جميع أوصاف الخيل ، المتفرقة في منظوم العرب ومشورهم . ثم شاء أن يضرب في النقد بسهم فراح يباري الراوة فيه ، وذلك في مقاماته : الشعرية والعراقية والقريضية فبدأ في اثنتين منهما رمّازاً ساخراً متهمكاً .

٣ أما التشاتم في المقامة الدينارية . فله شبهة في حكاية أبي القاسم البغدادى وفي رسالة للخوارزمي . وإذا نظرنا نظرة عامة إلى هذه المقامات رأيناها معرضاً لصور الحياة الاجتماعية في عصر البديع : عصر تحصيل المال من طريقه

الحرام والحلال . فبديع الزمان يعالج فيها الأزمات النفسية والعقد الوجدانية
 الفاشية في عصره ، ويرسم لنا صوراً اجتماعية أوحى بها إليه زمنه ومحيطه . رأيناه
 يصور لنا الغنى الطازج الحديث النعمة ، كما يصور لنا البطولة المقرونة
 بالدهاء ، ثم لا ينسى المدح الذي يستخدم له بطله أبا الفتح ، فيفتح الله عليه
 أبواب الرزق ، ويغرقه طوفان « خلف بن أحمد » . . . فالمقامات الناجية ،
 والنيسابورية ، والخلفيية ، والملوكية ، والتميمية ، والساريية ، كل هذه جميعها
 في مدح « خلف » الذي خلف على الحمداني وأغنائه ، ولا لوم ولا تريب
 على البديع إن رأيناه يخص هذا الرجل الكريم بأكثر من عشر مقاماته . وبعض
 رسائله وقصائده ديوانه ، فما شكر السوق إلا من ربح .

إن في حكايات البديع احتيالا ودهاء . فتارة يضحك ضحكة بلهاء
 وتارة صفراء ، كما يحدث لكل قارئ بعد مطالعة المقامة الأصفهانية ، إنك
 لتستعجز من عمل أبي الفتح بالمصلين حين تركهم في سجدتهم الطويلة ،
 فتعجب من نفس ميتة يحملها جسد تن لا يحترم أقدس أقداس البشرية إذا
 كان يفوز بالدون من حطام الدنيا .

وتمر بمقامات البديع فتعجب بالمقامة المضيرية إذ تراها قصة عصرية قد
 تنوء عن مضارعتها اليوم قصة في تحليل الشخصيات ودرس النفسيات . وهناك
 فكاهة طريفة في المقامة الحلوانية ، والمقامة الأسدية والبشرية تعدان من
 الأقاليم ذوات العقد ، وإن كان إلى جانب هذه قصص كالمقامة
الأزربيجانية التي تبدو كأنها كتبت بلا استعداد . . . فلا هي قصة ولا هي
 كلام طريف . وفي الخرجانية والبصرية يصور لنا الحمداني من نسيمهم اليوم
 « شحاذين بشرف » .

ويوفق الأستاذ إلى صنع إطار لقصته بأوجز كلام كما ترى حين يصور
 لك بطل المقامة المكفوفية ، أما في المقامات المدحية « الخلفيية » فلا يوفق الأستاذ
 لا في القصص ولا في الطرافة ، وقد يجوز لنا أن نقول له كما قال هو لبطله :
 إنك لشحاذ . وسنرى إذا كنت تشاركنا في هذا الرأي حين تطالع بعضها في مختارات
 المقامات .

أما الأسلوب فهو هو ، فالبديع خلاّق عبارات كقوله: ليلة نابغية ، وليلة في غير زيّها . . . إلخ ، كما أنه مغوار على غيره كما قلنا في غير هذا المقام . وقد رأيت تكرير عبارات وأفكار في المقامات والرسائل ولست أدري أيهما أسبق ، ففي المقامة النيسابورية ، وهي في مدح خلف ، كلام مأخوذ من رسالته في هجو القاضي .

والرسالة التي تحمل رقم ١٥٦ في طبعة بيروت شرح الأحذب ، تشبه مقامة الوصية وبعضها منقول بالحرف . وفيهما كليهما آراء بخلاء الجاحظ في الكرم .

أما التعابير الخاصة فتجدها في أكثر المقامات . وخصوصاً المقامات: القرديّة والأرمنية والحميرية وغيرها . وهناك مقامات مقصورة عن أخواتها ، أو هي على غرار واحد ، حتى يخيّل إلى أنه عملها ليتم بها عدداً نوى أن يبلغه ، فإذا قرأت النهيديّة والحجّاعية رأيتهما توأمتين . . .

بقي علينا أن نقول كلمة أخيرة وهي جواب عن هذا السؤال الذي كثيراً ما يرد : هل المقامة قصة ؟ نعم يا سيدي ، إنها قصة . والفرق بينها وبين قصص اليوم كالفرق بين هندامك أنت وهندام جدّك ، رحمه الله ، ورحمني معه . ولكن ليست كل مقامات البديع قصصاً فتقسم منها لأشياء ؛ والقسم الآخر شيء عظيم ، وحسب الرجل ما خلق . إنه لفنان بديع .

ج - ديوانه :

البديع في مقاماته ورسائله أشعر منه في ديوانه^(١) . وإن كان قد خلق في المقامة البشرية بطلاً أسطورياً جعله شاعراً تاريخياً حقيقياً . لقد تفوق البديع في هذه القصيدة ، وما أحسبه لإمتحان أبا بكر الخوارزمي حين قال منها :

فخرٌ مجدلاً بدمٍ كأنّي هدمت به بناءً مشمخراً
وقلت له يعزُّ عليّ أنسى قتلتُ مناسبي جليداً وقهراً

(١) « ديوان البديع » طبعة مصر سنة ١٩٠٣ ، ناشره محمد شكرى المكي .

إن لنثر البديع أثراً بعيداً في شعره . فهو لا يتخلى عن السجع والازدواج

في هذا الشعر ، كقوله ، مثلاً ، في مدح صاحب الجيش أبي علي :

ما السيفُ محتطماً ، والسييلُ مرتكماً ، والبحرُ ملتطماً ، والليلُ مقترباً
أمضى شباً منك ، أدهى منك صاعقةً أجدى يميناً ، وأدنى منك مطلباً
وكادَ يحكيك صوبُ الغيث منسكباً لو كان طلقَ الحياَ يمطر الذهباً
والدهر لو لم يخنْ ، والشمس لو نطقتْ والليث لو لم يُصدْ ، والبحر لو عذبا

أما الصناعة وقلة الأناقة فكثيرة كهذا البيت :

وليل كذكره ، كعنائه ، كاسمه ، كدين ابن عباد ، كاديار فائق

أما الجناس العارم والعبارات النثرية ، فتراها أين توجهت في ديوانه الصغير ؛

تأمل هذه الأبيات :

وكنْتُ إذا ما الليلُ ماج ظلامهُ جعلت على تياره جَسْرَتي جسرى
بمشرفة كالطود دائمة السرى كأنَّ على الشعري بها أو على شعري
وقد عجبتُ شمُّ الهضاب فما درت أبا العيس نسرى ، أم بأجنحة النسر
فيارب أندى فرعهُ المجدُّ فارعهُ ولا تُخلِ ذاك الصدر من ذلك الصدر

هذه بعض أبيات قالها في مدح الوزير الشيخ أبي نصر بن زيد ، ولا شك

في أنها نفقت عنده في ذلك الزمان ، أما في سوق الأدب فلا رواج لها اليوم .

وفي ديوان الشيخ كثير من المعميات والأحاجي ، وترجمة شعر فارسي .

وقد طبخ لنا في هذا الديوان ما نسميه في لبنان « مخلوطة » فنظم قصيدة غزلية

مزوجة بالألفاظ الفارسية ، وقد نشرناها في المختارات الشعرية للتفككة . وله

أيضاً أراجيز وقصائد مصطنعات كلها مبالغات واستعارات وتشبيهات حتى

إنى عددت له واحداً وعشرين بيتاً بدأها كلها بكأن ، وهذا يدلنا على الهتافات

وعلى التشابيه المرغوب فيها عندهم . ولعل أبرز صفة لهذا العصر هي هذه القوالب

البانيّة والمحسنات اللفظية ، ولو كان في هؤلاء الممدوحين من يشبه الرشيد ،

وسيف الدولة ، وابن العميد ، لما أقدم البديع على قول مثل هذا الشعر فيهم .

رحم الله البديع ، وجل من لا عيب فيه وعلا .

٢ - الأديب السياسي

تقدم لنا القول إنه يعنينا أمر الناصر لدين الله أبي القاسم محمود بن سبكتكين أكثر من سواه ، لأنه هو الذى سلب ملك خلف بن أحمد ملك كرمان ، وخلف بن أحمد هذا كان يعطى ويجزل العطاء وهو ممدوح بديع الزمان الذى خصه بمقامات ورسائل وقصائد ستقرأ بعضها فى بابها .

أما سبكتكين فامتدحه بقصائد ، ورسائل وجهها إلى وزيره الإسفرائينى . وهذه إحداها نشرها هنا للدلالة على مشاركة أديبنا البديع فى سياسة عصره . كتب إليه عندما انهزم السامانيون بباب مرو :

وردت رقعة الشيخ الجليل ، أدام الله بسطته منى ، على صدر انتظرها
وقلب استشعرها ، وإنى لا أغلط فى قوم أميرهم صبيّ ، ولا فى دولة عميدها
خصيّ ، وسنانها حلقىّ ، ونصيرها شقىّ ، وعدوها قوىّ ، إنى إذا لغوىّ . يا قوم ،
بماذا ينصرون ! أبحال عليه اعتمادهم ، أم بجمع هو أمدادهم ، أم يعدل به
اعتضادهم ، أم لرأى هو عمادهم ؟ هل هم إلا سطور فى قطور ! إن الله
تعالى علم أنهم إن ملكوا لم يُصلحوا ، وأمرهم ألا يفلحوا ، فسمعوا وأطاعوا .
طائفة من المداير ، وقوفهم بين النار والنير . إن أقاموا فالسيوف الهندوانية ،
وأن أيمنوا فالأتراك والخانيّة^(١) ، وإن أيسروا فجرجان والجرجانية ، وإن استأخروا
فالعطش والبرية . هو الموت إن شاء الله آخذاً بالخلق ، محيطاً بالظاعن منهم والمقيم .
جرجان يا مداير ، جرجان ، إن بها أكلةً من التين ، وموتةً فى الحين ،
نظرة إلى الثمار ، والأخرى إلى التابوت والحفّار ، ونجاراً إذا رأى الخراسانىّ نجس
التابوت على قدّه ، وأسلف الحفّار على لحده ، وعطّاراً يعدّ الحنوط برسمه .
وبها للغريب ثلاث فتحات للكيس : أولها لكراء البيوت ، والثانية لابتياح
القوت ، والثالثة ثمن التابوت ، أغلى الله بهم أسواق النجّارين والحفّارين
والمكّارين . آمين يا رب العالمين . » وله أيضاً رسالة وجهها إلى هذا الوزير

(١) نسبة إلى أيلك خان ، وهم جماعة أعانوا على السامانية فى هذه الهزيمة .

يمتدح فيها ابن سبكتكين ، وفيها وصف طريف لفتح بهاضية ، ثم وصف
للهند وتعظيم لهذا السلطان الذى فتحها . وسترى ، حين تقرأها فى مكانها ،
أن البديع جاء بالبدع فتكسب بالمقامات والرسائل والقصائد .

٣ - الأديب الاجتماعى

شارك بديع الزمان فى وصف أحوال عصره الاجتماعية ، وهذا ما كتبه
من رسالة مع الوفد طلباً للنظر لأهل هراة وفيه وصف البؤس الذى ليس فوقه
بؤس . قال :

« ولا أزيد الشيخ علماً بهراة وأهلها ، إنه قد شاهد أحوالهم ، وعرف ما عليهم
وما لهم ، ولم يغب عن ثاقب فطنته إلا القليل . ولكنى أخبره بما عرض لها
ولهم : فيهم فشت الأمراض الحادة فخبطت عشواء وأفنت رجالاً ، ثم جدّ
الغلاء ، وفقد الطعام ، ووقع الموت العام . فمن الناس من لم يُطعم أسبوعاً حتى هلك
جوعاً ، ومنهم من تبلّغ بالميتة إلى يومنا هذا ، وهو ينتظر نجبه ، ليلحق صحبه .
ومنهم من لا يجد القوت على كفه حتى يموت ، والباقون أحياء كأنهم أموات
ترعد فرائصهم من هذه البوائق . وإن هول السلطان أعظم وأطم ، وأمر
"المطالبات" أكبر وأهم . . . »

وكان هذه الرسالة لم تشمر فكتب رسالة أخرى إلى الشيخ السيد ابن أحمد
جاء فيها بعد التوطئة : « وقد علم الشيخ ما منى به أهل هراة من محن الخانية ،
ثم ما أرهقهم من الحقوق الديوانية ، ثم ما زيد عليهم من علاة المصادرة الحادثة ،
ثم ما كشف الأستار ، وأظهر العوار ، وقبح النوار من غلاء الأسعار ، حقاً
لقد أكلت الجيفة وهى خائسة ، وطُحنت عظام الميتة وهى يابسة ، وعُدِمَ
القوت وثمنه موجود ، وترك العبادات وهجرت النياحات ، وأفردت الجنائز ،
وتخطى الموتى وهم بالشوارع مطروحون . ولقد دخلت المسجد الجامع يوم أمس
فأريت تحت كل أسطوانة عليلاً ، وكَلَّمْتُ أحدهم فلم يبع إلا قليلاً . . . »
إلى أن يقول : « ومن الواجب على السلطان ، أعز الله نصره ، فى مثل

هذا العام ، أن يتعهد الناس بالطعام ، ويتخول الرعية بالإنعام ، ويبذل فيهم
الרגائب ليؤمن الساكن وليتألف الغائب . والبلاء كل البلاء إن طلب هذا المال
الموظف فتذهب الحاسة الباقية . . . »

هاتان قطعتان من رسالتين تعينان القارئ على مقابلة ذلك البطر بهذا
الجوع . وكذلك يفعل فساد الحكم ، وموت ضمير الرعاة في كل عصر .
إني أصدق كل ما كتبه البديع في وصف بؤس أهل بلدته ، فقد رأيت
بأمّ عيني هذه المشاهد بل أعظم منها في ضيعتي ، إيّا أن الحرب الأولى
عام ١٩١٦ .

٤ - طابعه الأدبي

جاء البديع والنثر المسجوع والمزدوج ينسخ على الأذهان بكلّ كلفة وجرائه .
كان لواء مدرسة ابن العميد يرفرف على الدواوين ، والصاحب يزجي الصفوف
تحت الدرفس . . . وكان أكبر ما ينبغي فتي همدان أن ينصوى تحت هذا
اللواء ، فأتيح له من حضرة الصاحب ما أراد ، ثم انصرف عنها تامّ الألواح
مكتمل العدة ، فقصد كاتب عصره ، أبا بكر الخوارزمي في نيسابور ، فأبدى
الشر نواجذه منذ وقعت العين على العين . وأراد البديع المنازلة الأدبية فكانت
وفاز ، وانتهت إليه الزعامة الأدبية حين خلت الدنيا من خصمه .

قد يكون البديع غالى في وصف مناظرته مع أنى بكر ، ولكن الذى لا شك
فيه ، هو أن هذا الشاب خاض المعركة مستعدّاً وولجها أبو بكر مستخفّاً .
ساعد البديع شبابه ، وحدة ذهنه ، وسلاطة لسانه ، فكان يستولى دائماً على
المبادرة ، ويرمى خصمه بقذائف نوادره ونكاته بلا حذر . فما قولك بشاب
يقول لشيخ جليل كأنى بكر : « إنك كهل وأنت شاعر ، وكنت شاباً وأنت
مقامر ، وكنت صبيّاً وأنت مؤاجر !! » ثم يقول له مزدرياً شعره الذى أنشده في
تلك المناظرة : « فكره أبو بكر ، أيده الله ، أن تكون الهرة أعقل منه ، لأنها
تحدث فتغطّي . » ثم قوله له : « والله لو أن قفّاك غدا في درج ، في خرج ،
في برج ، لأخذك من النعال ما قدم وما حدث . »

وبعد هذا ماذا ؟ فتح الله على البديع ، فأملى مقاماته الشهيرة فأحلتها في النثر محل امرئ القيس في الشعر ، ومشت الذرية على الطريق التي شقها في مقاماته ، فكان الحريري أول من حاول وأفصح ، ففتن الناس ببهلوانياته ومعجزاته ولغوياته ونحوياته . . . ثم أخذ الكتاب يطبعون على هذا الغرار البديعي الحريري نحواً من تسعة قرون ، سوّد السجع فيها وجوه الأوراق وغلّ أعناق الأقلام ، وما أزيح هذا الكابوس عن صدر الأدب العربي إلا في أخريات القرن التاسع عشر .

فالبديع كما يقول الحريري في مقدمة مقاماته : « سباق غايات وصاحب آيات » وعندي أنه ليس لأستاذه ابن فارس في اصطناع المقامة يد ، فشبخنا الهمداني عبقرى من الطراز الأول ، ولو أنصف الذين قسموا ميراث الأساليب القديمة لما حرموا البديع هذه الإمامة ، بل كان هو رأس هذه الطبقة لا ابن العميد .

قال القدماء : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » ، وأين ابن العميد من نابغتنا هذا ؟! أما تجاوز سلطان الهمداني الأدبي لسان العرب وتغلغل في الفارسية والسريانية والعبرانية ، فحاول جميع هؤلاء أن يقلدوه ، ويكتبوا مقامات في تلك اللغات كما كتب . إن في إنشاء ابن العميد ترف القصص وأناقها ، ولكنه يكاد يكون معدوم الحرارة ، في حين ترى النار المتأججة في رسائل البديع ، فلم يحمدها كره الدهور والعصور ، فمن يقرأ رسالته إلى ذلك الموظف المعزول ولا يحسب أنها كتبت أمس ؟! ثم من يطالع رسالته في ذم أبي بكر الحيري ولا يظن أنها كتبت أول من أمس ؟!

أما خدع البديع تاريخ الأدب العربي تسعة قرون في قصيدة وصف بها قتال بشر بن عوانة للأسد حتى قال ابن الأثير الذي يدعى علم كل شيء ، في نقد قصيدتي البحترى والمثنبي في قتال الأسد : « ولفطانة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر ، لأنه قصّر عنه تقصيراً كثيراً . » وما بشر بن عوانة إلا البديع الذي خلق هذا البطل الأسطوري فبلغ من القصة والقصص ما يعدّ أكبر أمنيّة يصبو إليها كبار القصصيين العالمين

اليوم . أى أن يخلقوا بطلا خالداً كأبطال شكسبير وموليير .
فالبحتري كما يفهم من نقد ابن الأثير مقصر عن البديع ، وإن كان
البديع هو الذى انسحب على ذيل البحتري . . .

نعم إن البديع وابن العميد والصاحب والحوارزمي شعراء انصرفوا إلى النثر
بل قل الشعر المنشور ، لأنهم لم يقدروا على مجازاة المتنبي شاعر العصر بل
شاعر جميع العصور الأدبية العربية ، ومثل هذا حدث ويحدث عند جميع
الأمم ، فأكابر القصصيين هم شعراء قصّروا عن نوابغ الشعراء ، فكانوا في
منثورهم أشعر منهم في منظومهم ، وهذا ما أصاب كتّاب القرن الرابع قبلهم ،
قصّروا عن أبي الطيب فراحوا يحلون شعره ويسرقون معانيه وبعض تعابيره الخاصة
كما قال صاحبنا البديع لأحدهم في إحدى رسائله السامية : « اسكت يا بعض
الأنام . . . » أخذه من قول شاعر العرب الأعظم :

وصرتُ أشكّ فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

وإذا ابهر بديع الزمان وادعى فهو على حق ، بل هو سيد الموقف وأمير
الكلام في هذه الحقبة من تاريخ الأدب ، ولم يفقه الحريري في العبارة التي
لا غبار عليها إلا لأنه نحوى لغوى وشاعر أيضاً ، أما الفن في المقامات فبقى
وظلّ وسوف يبقى للبديع .

البديع أديب طريف ، قصصى ملهم يريك بعيدات الشخص كها هي .
أما الحريري فعبارته صلبة منحوتة ، وفي مقاماته جفاف أسلوب العلماء والنحاة .
فالعبقريّة الفنية البعيدة عن التحكيك والتعمّل إنما تجدها في رسائل بديع الزمان
ومقاماته . إن حلو الكلام ومره لهذا الرجل ، وإذا كان الجاحظ أحلّ النثر
محل الشعر ، فأهدى « الكتاب » إلى الخلفاء والوزراء ، فهذا هو ذا البديع ينهج
نهجه فتحلّ المقامة والرسالة محل القصيدة ويجاز عليهما ويعطى ، وإن كان
بينهما مسافات شاسعة . فالجاحظ يتنفس من كير ولا يضيق صدره عن ميدان
مهما كان طويل الأمد ، في حين نرى البديع ضيق المنخرين والصدر قصير
النفس .

ثم أليس سواء لدى الفن ، أأربعمائة مقامة أملى الهمداني أم خمسين ؟

فالمقامة المضيرية وبضع أخوات لها تغنى عن ألف ، وهي كافية لتحل صاحبها حيث حل . كان البديع واقعياً أكثر منه خيالياً ، وإن توكأ على عصا الاستعارات والتشابه والكنيات ، وزين كلامه بالمجانسة والتلميحات والإشارات . إنه مادي لا يفلسف ولا يفكر بما وراء الطبيعة ، يتشيع للإثراء والوجهة الأدبية ، كما يتضح من مناظرته لأبي بكر . رأى السيد أبا الحسين « يضرب عن الحوارزمي بسيفين لأمر كان قد مؤه عليه » . فقال البديع : « أيها السيد ، إذا سار غيري في التشيع برجلين طرت بجناحين ، فإن كنت أبلغت غير الواجب ، فلا يحملنك على ترك الواجب . ثم إن لي في آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر . . . وللآخرة قلتها لا للحاضرة إلخ . »

والبديع يبتكر في الألفاظ أكثر من ابتكاره في المعاني ، ويعول على الكلام المستعمل لعلمه أنه أشد تأثيراً في النفوس . وقلما ذكر آية أو حديثاً أو كلمة مأثورة بحرفوها ، بل يكتفي بالإيماء إليها ثم يمضي ، ولذلك يصعب على القارئ العادي أن يدرك كل ما يعنى . وهو ليس ذلك القابض على خناق اللفظة ، فإذا جاءت على هينتها كان ، وإلا فهو يضع محلها غيرها ، وإذا لم يجد عرب وأخذ من الشارع ولا بأس في ذلك عنده . ولعل هذا من أثر اللسان الفارسي فيه . فكم من ألفاظ ساسانية نجدها عنده قاعدة مطمئنة لا تشكو فراقاً ولا غربة ، بل كأنها بين قومها وأهلها .

والبديع يدرك أن الجملة الطويلة ضعيفة الوقع ، ولذلك ترى جملة خفيفة وخصوصاً عندما ينبرى للهجاء ، بل قل للسب ، لأن هجاء صاحبنا سب وشتائم .

فهو عندي لم ينفرد في مقاماته أكثر من تفرد في رسائله التي بلغ فيها ما لم يبلغه أكابر الشعراء الهجائيين العرب . فهو يمجن ويمزح ، ويتهمكم ويكشف العورات ليكون له في كل عرس قرص ، ويرينا أنه ذلك القادر على القول في كل غرض ومطلب . إنه في مجونه وهجائه مرّ موجه ، وهو فيهما أقرب إلى بشار منه إلى أبي نواس الخفيف الظل .

ولكن نفس البديع نفس فنان أصيل يعرف كيف يبتدئ وكيف ينتهى ،
 وله كلمات مسكتة ونهايات طريفة ، كقوله فى مقامته الرصافية : « وفتش
 الغلام البيت فلم يجد سوى البيت . »
 وكقوله لبطله وهو فى ختام المقامة الإبليسية : « يا أبا الفتح ، شحذت على
 إبليس ! إنك لشحاذ ! »

وكقوله بلسان الحماسى الذى زجر بطل الهمداني : « اسكت يا فضولى . »
 إن هذا السخط على كل شىء هو الذى أنطق البديع بما نطق ، ولعل
 أخلاقه السرية أشبه بأخلاق بطله أبى الفتح . كان داهية مثله فى فتح أبواب
 الرزق ، فالشعراء قبل البديع كانوا يصفون الناقة ليبالغوا فى وصف مشتقات
 السفر ، ويكبروا مصائبهم فى عين الممدوح ليكبر الجائزة . أما صاحبنا
 الهمداني فكبطل مقاماته يدعى أن داهية نزلت به قبل بلوغه « الحضرة » ؛ تارة
 يزعم أن العرب قطعوا عليه الطريق وشلحوه ، « وورد نيسابور براحة أنقى من
 الراحة ، وكيس أخلى من جوف حمار ، وزى أوحش من طلعة المعلم » ؛ وطوراً
 يتهم بذلك الأتراك كما سترى فى رسائله .

وقد يتساءل القارئ إن كان البديع سيد القلم فلماذا لم يستوزر ؟ !
 أما الجواب عن هذا فأظن أن أنانيته وعجرفته ، ولسانه الطويل ، وحرصه بل
 شحه وتكالبه على المال قد حالت دون بقاءه فى القصور . وإنا نحمد الله على
 هذا ، فلو استقر البديع ورضى لما خرج من رأسه ما خرج من رسائل هجاء
 تعد آيات من آيات سحر الكلام .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار بديع الزمان

١ - الرسائل

١ - من رسائله المدحية

سيوف الحق

كتب إلى الشيخ أبي العباس الفضل بن أحمد الإسفرائيني وزير محمود بن سبكتكين عندما فتح بهاضية في الهند :

إن الله وهو العليّ العظيم المعطى ما شاء ، مَنْ على الإنسان بهذا اللسان ، خلق ابن آدم وأودع فكّيه مضغة لحم يصرفها في القرون الماضية ، ويخبر بها عن الأمم الآتية ، يخبر بها عما كان بعد ما خُلِق ، وعما يكون قبل أن يُخلق ، ينطق بالتواريخ عما وقع من خطب ، وجرى من حرب ، وكان من يابس ورطب ، وينطق بالوحي عما سيكون بعد ، وصدق عن الله بالوعد ، ولم ينطق التاريخ بما كان ولا الوحي بما يكون بأن الله تعالى خصّ أحداً من عباده ، ليس النبيّن ، بما خصّ به الأمير السيّد يمين الدولة ، وأمين الملة ، ودون الجاحد إن جحد أخبار الدولة العباسية ، والمدّة المروانية ، والسنين الحربية ، والبيعة الهاشمية ، والأيام الأموية ، والإمارة العدوية ، والخلافة التيممية ، وعهد الرسالة ، وزمان الفترة . ولولا الإطالة لعددنا إلى عاد وثمود بطناً بطناً ، وإلى نوح وآدم قرناً قرناً . ثم لم يجد قائل مقالاً أن ملكاً وإن علا أمره ، وعظم قدره ، وكبر سلطانه ،

وهبت ريجه ، طرق الهند فأسر طاغيتها بسطة ملك ثم خلاه ، وعرض الأرض قوة قلب وصبح سجستان وهي المدينة العذراء ، والخطبة العوراء ، والطيبة الغراء ، فأخذ ملكها إخذة عز وعنف ، ثم خلاه تخلية فضل ولطف ، ثم لم يلبث أن خاض البحر إلى بهاضية السيل والليل جنودها ، والشوك والشجر سلاحها ، والضح^(١) والريح طريقها ، والبر والبحر حصارها ، والجن والإنس أنصارها ، فقتل رجالها ، وغنم أموالها ، وساق أقيالها^(٢) ، وكسر أصنامها ، وهدم أعلامها ، كل ذلك في فسحة شتوة قبل أن يتطرقها الصيف ، توسطها السيف ، وهو الله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء .

ثم حكمت علماء الأمة ، واتفق قول الأمة أن سيوف الحق أربعة وسائرهما للنار ، سيف رسول الله في المشركين ، وسيف أبي بكر في المرتدين ، وسيف علي في الباغين ، وسيف القصاص في المشركين ، وسيف الأمير ، وفقه الله ، في مواقفه لا تخرج عن هذه الأقسام ، فسيفه بظاهر هراة فيمن عطل الحد واتهم بأنه ارتد ، وسيفه بظاهر غزنة سد في وجه العقوق ، نوعاً من الكفر والفسوق ، وسيفه بظاهر سجستان في من نبه الحرب بعد رقادها ، وخلع الطاعة بعد قبولها . وسيفه الآن في ديار الهند سيف قرنت به الفتوح ، وأثبتت عليه الملائكة والروح ، وذلت الأصنام ، وعز به الإسلام ، والنبي عليه السلام ، واختص بفضله الإمام ، واشترك في خيره الأنام ، وأرخت بذكره الأيام ، وأحفيت بشرحه الأقلام .

وسندكر من حديث الهند وبلادها ، وغلظ أكبادها ، وشدة أحقادها ، وقوة اعتقادها ، وصدق جلادها ، وكثرة أجنادها ، نبذاً ليعلم السامع أى غزوة غزاها الأمير السيد . إنها بلاد لو لم تحيها السحاب بدراً ، لأهلكتها الشمس

(١) الشمس .

(٢) الأقيال : جمع قيل وهو الرئيس والملك من ملوك حمير .

بحرّها ، فهي دولة بين الماء والنار ، ونوبة^(١) بين الشمس والأمطار ، تقدّمها صعاب الجبال وتحجبها رحاب القفار ، ويعصمها ملتف الغياض^(٢) ، وتحفّها طواغى الأنهار ، حتى إذا خرّقت هذه الحجب خلّص إلى عدد الرمل والحصى رجالاً ، وشبه الجبال أفيالاً ، وأنزاع المخاض جلاداً ، ومسناف الجمال طعاناً ، وأركان الجبال ثباتاً ، ثم لا يعرفون غدراً ولا بياتاً ، ولا يخافون موتاً ولا حياة ، ولا يبالون على أى جنبه وقع الأمر ، وينامون وتحتهم الجمر ، وربما عمد أحدهم لغير ضرورة داعية ، ولا حمية باعثة ، فاتخذ لرأسه من الطين إكليلاً ، ثم قوّر قحفه^(٣) فحشاه فتيلاً ، ثم أضرم فى الفتيل ناراً ولم يتأوّه ، والنار تحطمه عضواً فعضواً ، وتأكله جزءاً فجزءاً . فأما محرق نفسه ومغرقها ، وآكل لحمه ، ومفصل عظمه ، والراعى بها من شاهق ، فأكثر من أن يعدّ ، وأقلهم من يموت حتف أنفه ، فإذا مات هذه الميته أحدهم سبّ بها أعقابه ، وعظم عندهم عقابه .

بلاد هذه حالها ، وفيلة تلك أهوالها ، وجبال في السماء قلالها^(٤) ، وفلاة يلمع آلهها ، وغياض ضيق مجالها ، وأنهار كثيرة أوحالها ، وطريق طويل مطالها ، ثم الهند ورجالها ، والهندوانية واستعمالها . زحم الأمير السيد ، أدام الله ظله ، هذه الأهوال بمنكبه محتسباً نفسه ، معتمداً نصر الله وعونه ، فركض إليهم بعون من الله لا يُخذل ، ومدد من التوفيق لا يفتر ، وقلب من الأهوال لا يجبن ، وحث على المطلوب لا يقصر ، وسيف على الضريبة لا ينكل ، فسهل الله له الصعب ، وكشف به الخطب ، ورجع ثانياً من عنانه بالأسارى

(١) دولة .

(٢) الغياض : جمع غيضة وهي مجتمع الشجر فى مغيض الماء .

(٣) قور الشيء : قطعه من وسطه خرقاً مستديراً . والتحف : ما انفلق من الجمجمة فانفصل . أو إناء مثل قحف الرأس كأنه نصف قلع .

(٤) القلال : جمع قلة وهي أعلى الجبل .

تنظمهم الأغلال ، والسبايا تنقلهم الجبال ، والفيلة كأنها الجبال ، والأموال
ولا الرمال .

فتح ذخرة الله عن الملوك السالفة الخالية ، الكفرة الطاغية ، الجبارة العاتية ،
حتى وسمه بناره ، وجعله بعض آثاره ، والحمد لله معز الدين وأهله ، ومذل
الشرك وحزبه ، وصلى الله على محمد وآله .

الأب والابن

وكتب إلى الشيخ الإمام أبي الطيب سهل مادحاً خلف بن أحمد ومؤرخاً ما وقع له مع
ابنه حين ثار عليه .

ولما وقع بخراسان ما وقع من حرب ، وجرى ما جرى من خطب ، واضطربت
الأموال ، واختلفت السيوف ، والتقت الجموع ، وظفر من ظفر ، وخسر من
خسر ، كتبني الله في الأعلى مقاماً ، ثم ألهمني من الامتداد ، عن تلك البلاد ،
والإقلاع عن تلك البقاع . واعترضتنا في الطريق الأتراك ، وأحسن الله الدفاع
عن خير الأعلاق^(١) وهو الرأس ، بما دون الأعراض وهو اللباس ، فلم نجزع
لمرض الحال ، مع سلامة النفوس ، ولم نحزن لذهاب المال ، مع بقاء الرؤوس .
وسرنا حتى وردنا عرصة^(٢) العدل ، وساحة الفضل ، ومرجع الحمد ، ومشروع^(٣)
المجد ، ومطلع الجود ومنزع الأصل ، ومشعر الدين ومفرع الشكر ، ومصرع
الفقر ، « حضرة » الملك العادل أبي أحمد خلف بن أحمد ، فكان ما أضعناه ، كأننا
زرعناه ، فأنبث سبع سنابل . وكان ما فقدناه ، كأننا أقرضناه ، هذا الملك العادل ،

(١) الأعلاق : الأشياء النفيسة .

(٢) العرصة : الساحة .

(٣) المشروع : المورد .

وكأنما سُمِّيَ خلفاً ، ليكون عن كل فائت خلفاً ، وعن كل ما مضى عوضاً ،
وكأنما جُئناه ليضيّق علينا العالم ، ويبغض إلينا بني آدم ، فيجعل حبسنا سجستان
وقيدنا الإحسان . وكأنما خلق للدنيا تحجيلاً^(١) ، وللملوك تخجيلاً ، وكان هذا
العالم قد أحسن عملاً ، فجُعِلَ هذا الملك ثوابه ، وكأنَّ هذا الملك قد أذنب مثلاً
فجُعِلَ هذا العالمُ عقابه . وكأنه جسم والعَرَضُ عفاته^(٢) ، وكأنَّه ذاته ،
والمكارم صفاته . فهو البحر يمشى على رجلين ، والمجد يتصور في العين ، والعدل
يتقسم ، والجود يتجسّم ، والنجم يتكلم . فلما التقينا فرشت الأرض بيدي فرشاً ،
ونقشت التراب بقمي نقشاً ، وخطا إلى خطوات كادت الأرض لا تسعها ،
وكادت الملائكة ترفعها ، ثم إنه زيف بلقى وفود الكلام ، كما زيفت بلقىاه
ملوك الأنام ، وأفسدني على الناس ، من جميع الأجناس ، فما أرضى غيره أحداً ،
ولا أجد مثله أبداً ، وإن طلبت ملكاً في أخلاقه ، مِتُّ ولم ألاقه ، أو كريماً
في جوده ، عدمت قبل وجوده . فخرس الله سلطانه من ملك وسّع أرزاق ،
فضيّق أخلاق ، وأغلى ثمنى فما يشتريني أحد ، وعظم أمرى فما يسعني بلد ، وهذا
وصف إن أطلته طال ، ونشر الأذيال ، واستغرق القرطاس بل الأنفاس ،
واستنفد الأعمار ، بل الأعصار ولم يبلغ المعشار ، وأفنى الأقلام ، بل الكلام ،
ولم يبلغ التمام .

ما ظنُّ الشيخ بملك شهدت له الفراسة رضيعاً ، بأن لا يكون رضيعاً ،
والمحافل فطيماً ، بأن يكون سمحاً كريماً . والشواهد صبيّاً ، بأن ينزل مكاناً
عليماً . والشمايل غلاماً ، أن يكون ملكاً هماماً . فلما أيفع^(٣) وارتفع ، طالبته

ABC - LIBRARY

(١) التحجيل : بياض في قوائم الفرس .

(٢) العفاة : جمع عاف وهو الفقير .

(٣) أيفع : بلغ حد الشباب .

الهمة العليا برفض الدنيا ، حتى يؤدّي فرض الله في الحج ، فقام عن سرير الملك إلى سبيل النسك ، فحجّ البيت ودرس العلم حتى علم ناسخ الكتاب ومنسوخه ، ومباحه ومحظوره ومتن الحديث وصدره .

وكان استخلف على رعيته بعض خدمه وأوصى بهم كبيراً ، لا يظلمهم فقيراً^(١) فبسط ذلك العامل يده في المظالم يحتجبها^(٢) ، والمحارم يرتكبها ، فكرّر عليهم كرّة القمر ، ورجع إليهم رجعة المطر ، فحاربه وقهره ، ومحا الله أثره . ثم حملت له الأعداء العصى ، وحنّت إليه القسي ، والله من ورائه ، يكلاه^(٣) من أعدائه ، فما مرّ يوم من تلك السنين إلا نقصهم وازداد . فكم ركن هُدْم ، وجيش هزم ، وكيد عدم . فلما أقاموا طويلاً ، ولم يغنوا فتيلاً ، لم يكن أكثر من أن جاؤوه أمراء ، فعادوا فقراء ، ولبثوا أسراء ، ورجعوا صاغرين ، وانقلبوا خاسرين . وتبعهم كيده النافذ ، ومكره الآخذ ، يقفوا آثارهم ، ويكسع أديبارهم ، واشتملت جريدة مالقي من الحروب ، مع أبناء الذنوب ، وأولاد الدروب ، على بضعة عشر حرباً أخفها مع بضعة عشر ألف رجل ، وكتب الله له في جميعها النصر ، عادة في ملك صحب الدهر ، فلم يشرب الخمر ، ولم يسمع الزمر ، ولم يعرف النقر ، ولم يلعب القمّر^(٤) . تشحن دور الملوك بالمعازف ، وداره بالمصاحف ، وتأنس مجالسهم بالقيان ، ومجلسه بالقرآن ، ويألف أبوابهم حملة الظلم ، وبابه حملة العلم . وتعبت أيديهم بالعود ، ويده بالجود ، وتلعب أناملهم بالمزامر ، وأنامله بالدفاتر ، يدخرون الدراهم ، ويدّخر المكارم ، ويقتنون الجواهر ، ويقتني المآثر ، ويعدّون نفيس الأعلاق ، ويعدّ نفيس الأخلاق ، وكثيراً ما ينشدني :

(١) النقيير : الحفرة الصغيرة في ظهر النواة .

(٢) احتجب الإثم : جمعه .

(٣) يكلاه : يربعا .

(٤) القمر : المراهنة واللعب في القمار .

فهنَّ إذا جمعتنَّ دراهمٌ وهنَّ إذا فرقتنَّ مكارمُ
 ألمَّ بهذه السدَّة ، في هذه المدة فلان فرجع بثلاثين ألف دينار ، وقد نزلت
 بهذا المقام ، في هذه الأيام ، فاختلفت بين الخيل والخَوَل^(١) ، ومجلسي بين
 الحلَى والحلل ، وسيأتيه العم بتفصيل ما أجملت .

ثم إن لهذا الملك عند الله تعالى دعاءً مستجاباً يصعد بلا حجاب ، واعتبر ذلك
 في خطب وقع في هذه السنة فكشفه الله بدعائه ، وردَّ الكيد في نحر أعدائه .
 وكان بعض أولاده — كرمهم الله تعالى — يشرب في السرِّ شرب المصّر ، فبلغه
 الخبر فقصَّه ، على من اختصَّه ، وذهبت النفرة طولا وعرضاً ، وجرَّ الحديث بعضه
 بعضاً ، وأفضى إلى استمالة قلوب العسكر ، لركوب المنكر ، من إظهار العصيان
 والعقوق ، برفع المنجنوق^(٢) وضرب البوق ، وطابقه على ذلك جملة من الجنود
 ليسعوا في الظلم ، فلا يؤخذوا بالجرم ، وينسلوا عن لجام الشرع ، ويأمنوا عليه
 ألم الرَّدْع ، ودبَّ الشيطان بينهم ودرج ، وأولج هذا الابن وخرج ، وأتبعه الملك
 العادل بأكثر حجابيه وزعماء بابه ، ونفّر من غلمانهِ ليردّه إلى مكانه ، فلما بلغوا
 معسكره صاروا معه يداً واحدة ، وقدماً قاصدة ، وأظهروا شعار الدولة والعصيان
 على وليهم وولى نعمهم ، ومالك لحمهم ودمهم ، واتصل الخبر فكادت العقول تطير
 والقلوب تطيش ولم يؤمن من الحاضرين أن يكونوا مع الغائبين ، ومن المقيمين
 أن يكونوا كالذاهبين . فلما جنَّ الليل أُرْدفهم بجماعة من الأعراب ، وقام إلى
 المحراب ، يستنجد الله تعالى على ولده ، ويسأله أن يجعله في يده ، فلما التقت
 الفئتان أوحى الله تعالى إلى الرُّعب أن يدهشه وإلى الرمل أن يوحشه ، فقهر ذلك
 الجمع وقسر ، وقصَّ جناحه وكسر ، وأفلت الكل وأسر ، ولجأ من أفلت إلى ابن

(١) الخول : العبيد والإماء .

(٢) لعله المنجنيق : آلة حربية ترمى بها الحجارة .

سمجور وحارب في عسكره ، فلما التقى الجمعان بباب هراة وفي عسكره الحاجب النادب ، وزعيم بابه الذهاب ، أوحى الله تعالى إلى فرسيهما فوقفا ، فأسر كل واحد منهما وحده ، وأسر من كان معهما بعده ، فكُتِلوا في الحديد وردّوا إلى مولاهم ، فلما مثل الحاجب بين يديه قال : كيف رأيت الله يا ظالم نفسه ! ألم أشترك وحيداً ، ألم أربك وليداً ، ألم أغنك فقيراً . ألم أرفعك حقيراً ، ألم تهرب مستجيراً ، ألم تكن للظالمين نصيراً ، ألم تأتني أسيراً ، ألت به جديراً ، ألت عليه قديراً . فما أجاب بأفصح من السكوت ، فلما سمع الملك العادل صليل الحديد في رجليه ، بعد وسواس المنطقة عليه ، رثى لشقوته ، فعفا عن قدرته ، وتلك عادته فيمن خصّه بجرم ، ولا يعفو عن مستوجب حدّا ، ولو عزّ جدّا ، ثم إنه أطلق عن ولده وحبس من كان يسعى في الدولة بفساد .

وذكر الشيخ أبو فلان أن أبا فلان زاد على خراجهِ توابع ونوافل وضعف عليه مؤناً ولواحق ، وأمرني أن أكتبه ليرفع من الزيادة ما أثبت ، ويحصد من النكايّة ما أنبت ، فقلت : اللهم غفراً كيف يحتملني ، وهل يوقّر فضلي ، من لا يوقّر أصلي ! وكيف أكتب سلطاناً لا يعلم أن الدرهم يؤخذ من مالى خبيث الأحدوثة قليل المغوثة . إن رأى الشيخ أن يُعفيني من مكاتبتّه .

وهلم إلى ملك وجد خراجين لم تزل الملوك من أسلافه يستأدونها ويسمون الأول أصيلاً ويتأولون في الثاني تأويلاً ، ويسمون أحدهما فرضاً ، والآخر قرصاً ، فعمد إلى الخراج الأول فتحيفه^(١) ، وإلى الآخر فحذفه . فأما أبو فلان فإن استصوب الشيخ أن يعرض عليه الفصل من كتابي عرض ، ولا يستوحش من خشونة الأقوال ، فهي من خشونة الأفعال من جهته ، فإن جاز لنا أن نقول ،

(١) تحيف الشيء : تنقصه وأخذ من جوانبه .

ثم إن استأنف الحسنی عرفني لأحسن الخطاب ، وأعرف ما خبث مما طاب ،
ويتوب الله على من تاب .

استعطاف

وكتب إلى أبي بكر الخوارزمي :

أنا لقرب الأستاذ ، أطال الله بقاءه كما طرب النشوان مالت به الخمر ، ومن
الارتياح للقاءه ، كما انتفض العصفور بالله القطر ، ومن الامتزاج بولائه ، كما التقت
الصهباء والبارد العذب ، ومن الابتهاج بمرآه ، كما اهتزت تحت البارج الفصن
الرطب . فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتي العراق
وخراسان . بل ما بين عتبتني نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف في بردة
جَمَال . وجلدة حَمَال :

رثُ الشمائل منهج الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب
وهو أيده الله ولي أنعامه بإنفاذ غلامه إلى مستقرّي ، لأفضى إليه بسرّي ،
إن شاء الله تعالى .

ب - من رسائل العتاب والاعتذار

زهد واعتذار

وكتب إلى الأمير أبي أحمد خلف بن أحمد معاتباً ومدلاً :

كتابي ، أطال الله بقاءك ، وقد كنت نذرت ألا أخطب حضرتك ، ثم
روى لي القاضي حديثاً طرق إلى نقض ما نذرت طريفاً ، وسمعت منشداً ينشد :
لحي الله صعلوكاً مناهُ وهمهُ من العيش أن يلقي لبوساً ومطعماً

فقلت أنا معنى هذا البيت، لأننى قاعد فى البيت، آكل طيب الطعام، وألبس
 لين الثياب، ويُفاض علىَّ نزل^(١)، ولا يُفوّض إلىَّ شغل، ويملاً لى
 وطب^(٢)، ولا يدفع بى خطب، وهذا والله عيشُ العجائز، والزمنُ العاجز،
 وكنت أيام مقام الأمير أرى المسافة بين الرتب قريبة، وأجدنى أولاً كالثانى
 وثانياً كالأول، وأرى الآن ترتيباً جديداً، وتفاوتاً بعيداً، وكنت أحسبني
 متأخراً إذا شاء تقدّم، ومتواضعاً لو أراد تعظّم، ومسوداً لو زاحم من ساد، لملك
 الوساد. وأرانى الآن مُحوجاً إلى التأخر، مُلجأ إلى التصغّر، ولعل جُرمماً
 تصوّر، أو رأياً تغيّر، أو اعتقاداً أخلف، أو ظناً اختلف، فإن لم يكن شىء
 مما سردت وأوردت، فالغلط فى صدر القصة كان، وفى عجزها بان، وإن كان
 كذا فبالله ما أرضى، ولو صارت السماء أرضاً، ولا أريد، ولو انقطع الوريد^(٣).
 وإنى لأستحي من الله أن أرى لى المثل الأدنى وفى القوس منزع أنا، وإن لم
 أكن بالعراق أمير البصرة، وبيخارى زعيم الحضرة، فما زعجنى عنه همدان فقر إلى
 جوع وعرى، ولا ساقنى إلى سجستان طمع فى شبع وورى، وإنما نحوم حول المراد:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال

لا يكثر الأمير على من خلعه وصلاته^(٤)، فوالله لو علمت أن قصارى أمرى
 سجستان أليها^(٥)، وضياعها أقتنيها، وغلمانها أشتريها، وأموالها أتسع فيها،
 ولا مطمع فى زيادة بعد، لآثرت الزهد على الطلب. الرأس، أيد الله الأمير،

(١) ما يعد للضيف .

(٢) زق .

(٣) الوريد : عرق فى العنق .

(٤) الصلات : جمع صلة وهى العطية .

(٥) أليها : أكون والياً عليها .

كثير الخبوط والضيف كثير التخليط ، وصب هذا الماء خير من شربه ، وبعد
هذا الضيف أولى من قر به .

وكأنى بالأمير يقول ، إذا قرئت هذه الفصول : الهمداني رأى بهذه الحضرة من
الإنعام ، ما لم يره في المنام ، فكيف من الأنام ، ولعله أنشأ هذا الكتاب سكران ،
فعدل به عادل السكر عن طريق الشكر ، وكأنه نسي مورده ، الذي أشبه مولده ،
وإنما رفع لحنه ، حين أشبع بطنه ، واللثيم إذا جاع ابتغى ، وإذا شبع طغى ،
والهمداني لو ترك بجلدته ، يرقص تحت رعدته ، ما تربع في قعدته ، ولا تجشأ
من معدته . ولكنه حين لبس الحلة ، وركب البغلة ، وملك الخيل والحوّل تمنى
الدول ، ورأس اللثيم يحتمل الوهن ، ولا يحتمل الدهن ، وظهر الشقي يحمل عدلين
من الفحم ، ولا يحمل رطلين من الشحم ، ولولا الشعير ما نهقت الحير ، ولو لم
يتسع حاله ، لم يتسع محاله ، وكذا الكلب يزمن حين يسمن ، ولا يتبع حين
يشبع ، وعند الجوع يهيم بالرجوع ، وهذا المقترح^(١) من دعاه ! ولو لم يكن
عقباً ما تدرج .

ذكرت هذه الكلمات ليعلم الأمير أنى لم أنسها ، ومع تصور هذه الجملة أغار
على لحظاته ، وأواخذ الأمير بحركاته وسكناته ، وأرى أنه سعد منى بأكثر مما
سعدت منه . وأنف أن يقال سماه الهمداني حيث سما سواه ، ويقاس على هذا
ما عداه ، اللهم إلا أن أكون ضيفاً كالأضياف يقيم اليوم ويرحل غداً ، فلا
أنافس أحداً . والأمير ، أيده الله ، يأخذ هذا المعنى فيكسره لفظاً لين المأخذ ،
سهل المقطع ، ويرقيه إلى سمعه ويجيب عبده في الحال بما عنده ، والسلام .

الأدب والذهب

وكتب رقعة إلى مستريح عاوده مراراً :

عافاك الله ، مَثَلُ الإنسان ، في الإحسان ، مَثَلُ الأشجار ، في الأثمار ، سبيل من أتى بالحسنة . أن يرفّه إلى السنة ، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدِي ، وهما فؤادِي ویدی . أما الفؤاد فيعلق بالفود ، وأما اليد فتولع بالجود ، ولكن هذا الخلق النفیس ، لا يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ، ليس يحتمله الغريم ، ولا قرابة بين الأدب والذهب ، قلما جمعت بينهما . والأدب لا يمكن ثَرْدُهُ^(١) في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلعة ، ولی مع الأدب نادرة .

جهدت في هذه الأيام بالطبخ ، أن يطبخ من جيميّة الشّمّاخ^(٢) ، لوناً فلم يفعل ، ، وبالقصاب ، أن يسمع أدب الكتّاب ، فلم يقبل ، واحتيج في البيت إلى شيء من الزيت فأنشدت شيئاً من شعر الكميّة ألفاً ومئتي بيت فلم يُغنِ . ولو وقعت أرجوزة العجاج ، في توابل السكباج ، ما عدمتها عندي ، ولكن ليست تقع ، فما أصنع ؟ ! فإن كنت تحسب اختلافك إليّ ، إفضالاً عليّ ، فراحتي ، ألا تطرق ساحتي ، وفرجي ، ألا تجي ، والسلام .

ملامة

وله يعاتب بعض أصدقائه على التعيس وعدم البشاشة :

الوحشة ، أطال الله بقاء الشيخ ، تقتدح في الصدر اقتداح النار في الزّند ، فإن أطفئتْ بارت وتلاشت ، وإن عاشت طارت وطاشت ، والقطرُ إذا تدارك على

(١) ثرده : أعده ثريداً وهو الخبز المفترت الملتوت بالمرق .

(٢) الشّمّاخ والكميت والعجاج شعراء مشهورون .

الإناء امتلاً وفاض ، والعتّ إذا ترك فرّخ وباض ، ونحن أولو هذه الصنعة لا يطردنا سوط كالجفاء ، ولا يعقلنا شرك كالنداء ، ثم على كل حال ، ننظر من عال ، على الكريم نظر إدلال ، وعلى اللئيم نظر إذلال ، فمن لقينا بأنفٍ طويل ، لقيناه بخرطوم فيل ، ومن لحظنا بنظرٍ شزر ، بعناه بثمرٍ نزر ، وعندى أن الشيخ الرئيس لم يغرسنى ليقطعنى فتاه ، ولا اشترانى ليبيعنى سواه .

ويحك ! سلّمت عليه الغداة فردّ جواباً يردّ مثله على الوكلاء ، بشرط الإيماء ، واقتصر من البشاشة ، على تحريك الشاشة ، ومن الإقبال ، على تعويج السبال ، وعهدى بذلك الرئيس يخرق إلى بساطه عدواً ، وسماطه حبواً ، فهذا الفاضل أجلّ من والده الفقيه ، أيّده الله ، يوصيه بحسن العشرة معى من بعد ، فللّتيه يوم ، وللجبروت قوم ، وما أريد بعد هذا الإعتاب إعتاباً ، ولا عن هذه الرقعة جواباً ، فإني لا أمكّنه بعدها من أن يستهين ، ولا أسلمّ عليه حتى يهين ، والحمد لله رب العالمين .

تنقيف وتقويم

وكتب إلى الشيخ أبى عبد الله الحسين بن يحيى (١) .

كتابى ، أطال الله بقاء الشيخ ، وللشيخ لذة فى السبّ والعتب ، وطبيعة فى العنف والعسف ، فإذا أعوزه من يغضب عليه ، فأنا بين يديه ، وإذا لم يجد من يصونه فأنا زبونه ، والولد عبدٌ ليست له قيمة ، والظفر به غنيمة ، والوالد مولى أحسن أم أساء ، فليفعل ما شاء ، لا يعدمه الله منى جسداً لا يتألم بالضرب ، وقبلأ لا يتظلم من العتب ، هنيئاً (له) ما استحل من عرضى وأكل من لحمى ، فما يأكل إلا لحمه ، ولا يضم إلا بعضه .

(١) يبسط فى هذه آراء فى التعلم والتعليم .

وكأني به وقد استجدّ إخوانا ولا بأس ، فإن كانت للجديد لذة فللقديم
حُرمة ، والأخوة بُردة لا تضيق عن اثنين ، ولو شاء لعاشرنا في البين . وكان
سألني أن أروده منزلاً مأوّه رويّ ، ومرعاه غذيّ ، وأكاتبه لينهض إليه راحلته ،
فهناك نيسابور ضالته التي نشدتها ، وقد وجدتها ، وخراسان مُنيّة التي طلبتها ، وقد
أصبتها ، وهذه الدولة بغيته التي أردتها ، فقد وردتها ، فإن صدقني رائداً ، فليأتني
قاصداً ، وإن رضيني مشيراً فليجئني سريعاً ، وهيهات أن يترك أروند وهضابها ،
وترمذ وشعابها ، وماوسا ورياضها ، فيعتاض عنها كرم العهد ، ولو علم أن رياض
الأخوة أنضر ، وشعاب المروءة أطيب ، وأنه لا يعدم من نيسابور مثل تلك
المتنزّهات ، وخيراً من تلك المتوجّهات ، لحثّ إليها ركابه .

وأما أنا وأخباري بهذه الناحية ، فمقلّب في ثوب العافية ، موفر بهذه الحضرة ،
مرموق بعين القبول ، هذه جملة حالي ووراءها تفصيل ، منها عليه دليل .

وأما الأخ أبو سعيد ، جعلني الله فداه ، ورزقني لقاءه ، فقد شكرت برّه ، ولولا
إشفاق من ضعف تركيبه ، ولطف تربيته ، وعلمي أنه لا يحتمل وعشاء السفر
لسألت الشيخ إهداءه إلىّ لأتولى تعليمه وتقويمه ، لكنه رطب العظام ، لطيف
الأركان ، لا أخطر بإنهاضه من ذلك المكان ، حتى يعقد مخّه في عظامه ، وأثق
بقوة ألواحه . وبلغني أنه ابتداءً مجمل اللغة فأين بلغ منه ؟ والشيخ لا يحمل عليه
بعويص اللغة حتى يعلم سهلها ، ولا يأخذه بما أخذني به ، فالعمر لا يتسع للعلوم
أجمع فلينفق على أحسنها ، ويكفيه من اللغة علم مستحسنها ، دون مستهجنها ، ومن
الإعراب معرفة أصوله ، وما لا غناء به عنه من فروعه ، ثم يأخذ به علوم كتاب
الله تعالى حتى يرد على قرّة عين لي ولك ، وصلى الله على محمد وآله .

فاقة وخصاصة

وكتب هذه الرسالة اعتذاراً :

كتابي وقد توسّطت الشباب وتطرفت الشيب ، وقبضت من إثر الزمان ،
ونظرت في عقب الأمور ، وطرت مع الملوك ، ووقعت مع الخطوب :
ورافقتها والجنّ تنهى وتأمّرُ ففارقتها والموتُ خزيانُ ينظرُ

وعددت من سنيّ خمساً وعشرين ، وما عدت أشهرها ، حتى حلبت
أشطرها^(١) ، ولا سلمت رسنها^(٢) ، حتى استوفيت ثمنها ، وأنا بما منح الله الأستاذ
كلّ يوم من مزيد منتظم الأمور ، موفور السرور ، والحمد لله حق حمده ، والصلاة
على رسوله محمد عبده .

وقولُ الأستاذ نعمةً لو صادفتُ أرضاً ، وصنيعةً لو أصابت موضعاً ، فكأنني
به يقول : هذا الكافر للنعمة طوانا حين نشرناه ، وجفانا حين برزناه ، وغاب
سنين فلا كتاب شكرٍ كتب ، ولا قصيدة مدحٍ نظم ، ولا يوماً من أيامى ذكر ،
ولا يداً من أياديّ نشر . وإن فعلت فلأني خراساني ، وأعزّ موجودٍ في الخراسانية ،
الإنسانية . ولورآني الأستاذ وأنا في قميصٍ بأذنين ، وقبّاء^(٣) ضيق الرّدّنين^(٤) ،
وعمامة كقبة الحجاج ، وخفّ فاسد المزاج ، أعلاه جراب ، وأسفله خراب على
برذون^(٥) عبدى التقطيع ، يرقص كالرضيع ، لعلم كيف تجرى الفرسان وكيف
يمسخ الإنسان .

(١) يقال : حلب أشطر الدهر أى جربه وعرف خيره وشره .

(٢) الرسن : المقنود .

(٣) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .

(٤) الرذن : أصل الكم أو طرفه الواسع .

(٥) البرذون : دابة الحمل الثقيلة .

وقد علم الله أننى فارقت تلك الحضرة مفارقة أبينا الجنة ، ولكن الحر لا ينجح
إلى القيامة ، على الدعامة بالهامة ، إذا وجد وجهاً خصبيا ، ومرعى رطيبا . والله
لقد رأيت يدي مجتة أفواه الأمراء والوزراء ، وقد نظرت يمنية ، فلم أر إلا محنة ،
وعطفت يسرة ، فلم أر إلا حسرة :

فإن متُّ لم أهلك وفي النفس حاجة وفي العمر إلا قد قضيت قضاءها

لا شماتة

جواب إلى من كتب إليه يهنئه بمرض خصمه أبى بكر الخوازمي :

الحرّ ، أطال الله بقاءك ، ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتي ، ووصف أحواله
صفتي ، إذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهي أمانى ، فإن وجدت
فهي عواري ، وإن محن الزمان وإن مطلّت فستنفد ، وإلّا تُصِبْ فكأن قد ،
فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها في نفسه ، ولا يعدمها في جنسه ، والشامت إن
أفلت فليس يفوت ، وإن لم يمت فسيموت ، وما أقبح الشماتة ، بمن آمن الإماتة ،
فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان^(١) طعمه
الخيار^(٢) ، وظمآن شر به الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، أم يُسرّر
العاقل بسلاح قاتله ؟ ! . وهذا الفاضل ، شفاه الله ، وإن ظاهر بالعداوة قليلا ، فقد
باطناه ودّا جميلا ، والحر عند الحميّة لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند
الشدائد تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجّع لعلته ،
والتحرّز لمرضته ، وقاه الله المكروه ، ووقانى سماع السوء فيه ، بحوله ولطفه .

(١) غرثان : جوعان .

(٢) الخيار : جمع خير وهو الكريم .

ج - من رسائل القدح والذم

قاضي السوء

وكتب إلى القاضي أبي القاسم على بن أحمد يشكو أبا بكر الخيري :

الظلامَةُ ، أطال الله بقاء القاضي ، إذا أتت من مجلس القضاء لم تَرَقَّ إلا إلى سيد القضاة ، وما كنت لأقصر سيادته على الحكم ، دون جميع الأنام ، لولا اتصّالهم بسببه ، واتّسامهم بقلبه ، وهم القضاة اتّسموا بسمته ، متطفلين على قسمته .
ألهم أديم في الصحة كأديمه ، أو قديم في الشرف كقديمه ، أو حديث في الكرم كطريفه ؟ فهنيئاً لهم الأسماء وله المعاني ، ولا زالت لهم الظواهر وله الجواهر ، ولا غرو إن سمّوا قضاة فما كلُّ مائع ماء ولا كل سقف سماء ، ولا كل سيرة عدلُ العمرين ^(١) ، ولا كل قاضٍ قاضي الحرمين ، وبالثارات القضاء !
ما أرخص ما بيع ، وأسرع ما أضيع ، وألبسته الأندال قبل خلو الديار وموت الخيار ، ألا يغارون لخلي الحسناء ، على السوداء ، ومركب أولى السياسة تحت الساسة ، ومنزل الأنبياء من تصدر الأغبياء ، وحى البزاة من صيد البغاث ، ومربع الذكور من تسلط الإناث ، وبألرجال وأين الرجال ؟

وُلّي القضاء من لا يملك من آلاته غير السبال ، ولا يعرف من أدواته غير الاختزال ، ولا يتوجه من أحكامه إلا في الاستحلال ، ولا يرى التفرقة إلا في العيال ، ولا يحسن من الفقه غير جمع المال ، ولم يتقن من الفرائض إلا قلة الاحتفال وكثرة الافتعال ، ولم يدرس من أبواب الجدل إلا قبح الفعال وزور المقال . ذاك أبو فلان الفلاني أضاعه الله كما أضاع أمانته ، وخان خزانته ، ولا حاطه من قاضٍ في صولة جندي وسبلة كروى ، فما أشبهه في قضاياه ، وتخيّره بين خطاياهم ،

(١) العمران : أبو بكر وعمر .

إلا بالصبيّ يسلم إلى عديله ، ويلفّ وجهه في منديله ، ويجمع عليه أترابه فيحنى
قذاله^(١) . وكل رفعة بصفحة ، ويسأل عن ضاربها ، فإن غلط في صاحبها ، أعيد
على وجهه اللفّ ، وعلى قذاله الكفّ ، وكذا من شغل أيام صباه بما شغل ، وفعل
أيام الشباب ما فعل ، ثم جلس للقضاء كهلا ، ووسع كل شيء جهلا .

وبعد ، فإن القضاء من القضية ، والحياة لا تلد غير الحياة ، فمن اعتزى إلى
أبٍ كأبيه ، واقتن بأخٍ كأخيه ، لم يُلم على جهله ، فهو الشيء من أهله ،
والفرع في أصله . والعلم ، أطال الله بقاء القاضي ، شيء كما تعرفه بعيد المرام ،
لا يصاد بالسهم ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى في المنام ، ولا يضبط بالجام ،
ولا يورث عن الأعمام ، ولا يكتب للثام . وزرع لا يزكو في كل أرض حتى
يصادف من الحرص ثرى طيباً ، ومن التوفيق مطراً صيباً ، ومن الطبع جواً
صافياً ، ومن الجهد روحاً دائماً ومن الصبر سقياً نافعاً ، والعلم علق لا يُباع ممن زاد ،
وصيد لا يألف الأوغاد ، وشيء لا يدرك إلا بنزع الروح ، وغرض لا يصاب
إلا بافتراش المدر ، واستناد الحجر ، ورد الضجر ، وركوب الخطر ، وإدمان السهر ،
واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، وإعمال الفكر ، ثم هو معتاص على من زكا
زرعه ، وخلا ذرعه ، وكرم أصله وفرعه ، ووعى بصره وسمعه ، وصفا ذهنه
وطبعه ، فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء ، وشغل سلوته بالغنى وخلوته
بالغناء ، وأفرغ جده على الكيس ، وهزله على الكأس . والعلم ثمر لا يصلح
إلا للغرس ، ولا يغرس إلا في النفس ، وصيد لا يقع إلا في البذر ، ثم لا ينشب
إلا في الصدر ، وطائر لا يخدعه إلا قفص اللفظ ، ثم لا يعقله إلا شرك الحفظ ،
وبحر لا يخوضه الملاح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح ، وجبل لا يتسم

(١) القذال : ما بين الأذنين من مؤخر الرأس .

إلا بخطا الفكر ، وسماء لا يصعد إلا بمعراج الفهم ، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد .

أيكفي أن يصبح المرء بين الزق والعود ، ويمسى موجبات الحدود ، حتى يتم شبابه ، وتشيب أترابه ، ثم يلبس دنّيته ، ليخلع دينيته ، ويسوى طيلسانه ليحرف يده ولسانه ، ويقصر سباله ليطيل حباله ، ويبدى شقاشقه ليغطي مخارقه ، ويبيض لحيته ليسود صحيفته ، ويظهر ورعه ، ليخفي طمعه ، ويعشى محرابه ، ليملا جرابه ، ويكثر دعاءه ، ليحشو وعاءه ، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً ، ويقعد حاكماً ، هذا إذا المجد كآلوه بقفران . كلاً حتى ينسى الشهوات ، ويجوب الفلوات ويعتضد الحابر ، ويحتضن الدفاتر ، وينتج الخواطر ، ويحالف الأسفار ، ويعتاد القفار ، ويصل الليلة باليوم ، ويعتاض السهر من النوم ، ويحمل على الروح ويجنى على العين ، وينفق من العيش ، ويخزن في القلب ، ولا يستريح من النظر إلا إلى التحديق ، ولا من التحقيق إلا إلى التعليق . وحامل هذه الكلف إن أخطأه رائد التوفيق ، فقد ضلّ سواء الطريق ، وهذا الخيري رجل سفلة طلب الرئاسة بغير تحصيل آلاتها ، وأعجله حصول الأمانة عن تمحل أدواتها :

والكلب أحسن حالة وهو النهاية في الخساسة

من تصدر للرياسة قبل إبان الرياسة

فولى المظالم وهو لا يعلم أسرارها ، وحمل الأمانة وهو لا يعرف مقدارها ، والأمانة عند الفاسق ، خفيفة الحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال ، ويحملها الجهال ، وقعد مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين كتاب الله يتلى ، وحديث رسوله يروى ، وبين البيّنة والدعوى ، فقبحه الله من حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام ، يدلى بهما إلى الحكم ، ولا مزكى أصدق لديه من

الصُّفْر ، ترقص على الظفر ، ولا وثيقة أحبّ إليه من غزات الخوصوم ، على
السيكيس المحتوم ، ولا وكيل أوقع بوفاقه من خبيثة الذيل ، وحمّال الليل ، ولا كفيل
أعزّ عليه من المنديل والطبق ، في وقتي الغسق والفلق ، ولا حكومة أبغضُ
إليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس ، ثم الويل
للفقير إذا ظلم فما يغنيه موقف الحكيم ، إلا بالقتل من الظلم ، ولا يجيره مجلس
القضاء ، إلا بالنار من الرمضاء .

وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الأسود ، بل الحيات السود ، لكانت
سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضى وأقاربه .
وما ظنُّ القاضى بقوم يحملون الأمانة على متونهم ، ويأكلون النار في بطونهم ،
حتى تغلظ قصراتهم^(١) من مال اليتامى ، وتضمن أكفالمهم من مال الأيامى ،
وما ظنك بدارٍ عمارتها خراب الدور ، وعُظلة القدور ، وخلاء البيوت ، من
الكسوة والقوت ، وما قولك في رجلٍ يعادى الله في الفلس ، ويبيع الدين بالثمن
البخس ، وفي حاكم يبرز في ظاهر أهل السمّ ، وباطن أصحاب السبّ ، فعله
الظلم البحت ، وأكله الحرام السُّحْت^(٢) ، وما رأيك في سوسٍ لا يقع إلا في صوف
الأيّام ، وجرادٍ لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا خزانة
الأوقاف ، وكردى لا يغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين
الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟!

وما زلت أبغض حال القضاة طبعاً وجبلةً ، حتى أبغضتهم ديناً وملةً ،
وألعنهم دربةً ، حتى لعنهم قربةً ، بما شاهدت من هذا الخيرى وقاسيت ،
وعانيت من خبطه وخطبه ما عانيت ، وسأسوق حديثي معه :

(١) رقابهم . (٢) الحرام ومال الظلم

إنه أصلحه الله قد فتش أعطاف نيسابور فما وجد إلا رأسى دبة^(١) وإلا لحيتى مذبة^(٢)، فجنى لى على خمسة آلاف درهم أرقى فى كسبها ماء العمر، وأخرجتها من أنياب الخطوب الحمر، وخمسة أشهر من عمرى كل يوم منها خير من عمر شريح القاضى فى أمر الباغ^(٣) المعروف بباغ أسد. عقد لى إجاره ثلاث سنين واحتملت دخله أياماً قلائل، ثم لم يكن مثلى معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره وخرج فى طلبه، حتى عبر جيحون بسببه، يطلبه فى كل منهلة، وينشده فى كل مرحلة، وهو لا يجده، حتى جاوز خراسان، وانتهى إلى طبرستان، وأتى العراق، وطاف الأسواق، فلما لم يجده، وأيس عاد وقد طالت أسفاره، ولم يحصل حماره، حتى إذا حصل فى بلده، بين أهله وولده، أحب الله أن يلطف له لطفاً ليعتبر به، فنظر ذات يوم إلى إصطبله فإذا الحمار بسرجه ولجامه، وثفره^(٤) وحزامه، قائماً على المعلق ينش.

وأنا أيضاً ما زال يردنى فى هذا الباغى بأمل يرخيه ويشده، وطمع يرسله ويمده، حتى صار الباغ بأرضه ومائه، وزرعه وبنائه، فى يد الهمذانى. أليس، أطل الله بقاء القاضى، يعامل مثلى بمثلها إلا سخيّ أو سخيّف، أما السخيّ فالذى لا يبالى بما يؤول إليه عقباه، ولا يوجعه الصفع على قفاه، والله المستعان والقاضى الفاضل المستجار، ولعن الله الخيرى ووقتاً قطعتة بذكره، وقرطاساً دنسته باسمه، والحمد لله.

(١) طريقة .

(٢) ما يطرد به الذبان .

(٣) البستان .

(٤) سير فى مؤخر السرج يوضع تحت ذنب الدابة .

جفوة ونفار

وكتب إليه رجل عزل عن ولاية حسنة يستمد وداده فأجابه بهذه الرسالة التي عارضها الكثيرون :

وَرَدَّتْ رَقْعَتُكَ ، أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ ، فَأَعْرَتْهَا طَرْفَ التَّعَزُّزِ ، وَمَدَدَتْ إِلَيْهَا يَدَ
التَّقَرُّزِ ، وَجَمَعَتْ عَنْهَا ذَيْلَ التَّحَرُّزِ^(١) ، فَلَمْ تَنْدَ عَلَى كَبْدِي ، وَلَمْ تَحْظْ بِنَظَرِي وَيَدِي ،
وخطبتَ من مودَّتِي ما لم أجِدْكِ لها كِفْؤًا ، وَطَلَبْتَ مِنْ عَشْرَتِي ما لم أَرَكْ لها رِضًا .
وَقُلْتُ : هَذَا الَّذِي رَفَعَ عَنَّا أَجْفَانَ طَرْفِهِ ، وَشَالَ بِشَعْرَاتِ أَنْفِهِ ، وَتَاهَ بِحَسَنِ قَدِّهِ ،
وَزَهَا بِوَرْدِ خَدِّهِ ، وَلَمْ يَسْقِنَا مِنْ نَوْنِهِ^(٢) ، وَلَمْ نَسِرْ بِضَوْئِهِ ، وَالْآنَ إِذْ نَسَخَ الدَّهْرُ
آيَةَ حُسْنِهِ ، وَأَقَامَ مَائِدَةَ غَصْنِهِ ، وَفُتًا^(٣) غَرْبَ عَجْبِهِ ، وَكَفَّ زَهْوُ زَهْرِهِ ، وَانْتَصَرَ لَنَا
مِنْهُ بِشَعْرَاتِ كَسْفَتِ هَلَالِهِ^(٤) ، وَأَكْسَفَتْ بَالَهُ ، وَمَسَخَتْ جَمَالَهُ ، وَغَيَّرَتْ حَالَهُ ،
وَكَدَّرَتْ شَرْعَتَهُ^(٥) ، جَاءَ يَسْتَقِي مِنْ جُرْفِنَا جَرْفًا ، وَيَعْرِفُ مِنْ طَيْبِنَا غَرْفًا ، فَهَلَا
يَا أَبَا الْفَضْلِ مَهْلًا :

أُرْغَبْتَ فِينَا إِذْ عَلَا كَ الشَّعْرُ فِي خَدِّ قَحْلٍ^(٦)

وَخَرَجْتَ عَنْ حَدِّ الظُّبَا ء وَصَرْتَ فِي حَدِّ الْإِبِلِ

الْآنَ تَطْلُبُ عَشْرَتِي عُدَّةً لِلْعِدَاوَةِ يَا خَجِلٌ

وَتَنَاسَيْتَ أَيَّامَكَ إِذْ تَكَلَّمْنَا نَزْرًا ، وَتَلَحَّظْنَا شَزْرًا ، وَتَجَالَسَ مِنْ حَضْرٍ ،
وَنَسْتَرَقَ إِلَيْكَ النَّظَرَ ، وَنَهَيْتَ لِكَلَامِكَ ، وَنَهَشَ لِسْلَامِكَ :

(١) أى الاحتراز منها .

(٢) المطر .

(٣) فُتًا القدر سكن غلبها .

(٤) أى أنه التحى فذهب جماله .

(٥) محل الماء .

(٦) جلد على عظم .

ومن لك بالعين التي كان مدةً إليك بها في سالف الدهر ينظرُ
أيام كنت تمايل ، والأعضاء تنزِيل ، وتنعاج ، والأجساد تنفالج ، وتتلقت ،
والأكباد تتفتت ، وتخطر وترفل ، والوجدُ يعلو بنا ويسفل ، وتدبر ، وتقبل ،
فتَمَنى وتخبّل ، وتصدّ وتعرض ، فتُضنى وتمرض :

وتبسمُ عن ألمي كأنَّ منوراً تخلل حرَّ الرمل غصَّ له ندى
فاقصر الآن فإنه سوق كسد ، ومتاع فسد ، ودولة عرضت ، وأيام انقضت :

وعهد نفاقٍ مضى وخطب كسادٍ نزل
وخذ كأنَّ لم يكن وخطُّ كأنَّ لم يزل

يوم صار أمس ، وحسرة بقيت في النفس ، وثغر غاض ماؤه فلا يرشف ،
وريق خدع فلا ينشف ، وتمايل لا يُعجب ، وثَن لا يطرب ، ومقلة لا تجرح
الحاظها ، وشفة لا تفتن ألفاظها ، فختام تدل وإلام ، ولم نَحْتَمِل ، وعلام ، وأن
أن تدعن الآن . وقد بلغني الوقت ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد العشاء في
العسق ، وتشبيه يفتضح عند ذوى البصر ، وإفنائك لتلك الشعرات حفاً وحصاً^(١) ،
وإسباغك لها تنفقا وقصاً ، وسيكفينا الدهر مؤونة الإنكار عليك بما يزف إليك ،
من بنات الشعر وأمهاته .

فأما ما استأذنت رأيي فيه من الاختلاف إلى مجلسي فما أقل نشاطي لك
وأضيق بساطي عنك ، وأشبع قلبي منك ، وأشد استغنائى عن حضورك ، فإن
حضرت فأنت كغاش نروض عليه الحلم ، ونتعلم به الصبر ، ونتكلف فيه الاحتمال
ونغضى منه الجفن على قذى ، ونطوى منه الصدر على أذى ، ونجعله للعيون تأديباً
والقلوب تأنيباً .

مالك يا أبا الفضل ، تعترض من الرغبة عنا رغبة فينا ! ومن ذلك التدلل
علينا تذلاً لنا ! ومن ذلك التعالي تبصصاً ، ومن ذلك الغالي ترخصاً ! وما
بالدهر أبدلك من التزايد تنقصاً ، ومن التسحب على الإخوان تقمّصاً . ولئن
اعتضت عن ذلك الذهاب رجوعاً ، لقد اعتضت عن هذا النزاع نزوعاً ، فأنأ
برحلك وجانبك ، ملق حبلك على غاربك ، لا أوثر قربك ، ولا أند^(١)
سربك ، ولو أحببت أن أوجعك لقلت :

ما يفعل الله باليهودِ ولا بعبادٍ ولا ثمودِ
ولا بفرعون إذ عصاهُ ما يفعلُ الشعرُ بالحدودِ

د - من رسائل السب والشتم

شكوى وسعاية

كتب إلى الشيخ الفاضل ابن أحمد الإسفرائيني وهو أول من استوزر لمحمد بن سبكتكين
فاتح السند والهند .

كتابي والثرمة ، أدام الله عز الشيخ الجليل ، تخرج من أكامها ، فتكون
مرة قبل تمامها ، ثم تصير مرة كثيراً من أيامها ، ثم تكون فجّة عفصة^(٢) ، ثم
لا يزال الليل والنهار ينضجانها حتى تصبح رطباً جنيّاً ، وتؤكل حلواً هنيئاً ، وقد
تصورني الشيخ الجليل حجراً لا يؤثر في الماء والنار ، ولا ينضجني الليل والنهار ،
وللشباب نزقة طيش ثم يربعون ، إذا جاء الأربعون ، وينزعون ، وإن كانوا
لا يوزعون .

(١) نده : صاح زاجراً .

(٢) مرة تسبب القبض .

ولقد نظرت في المرأة فوجدت الشيب يتلهب وينهب ، والشباب يتأهب ويذهب ، وما أسرج هذا الأشهب إلا لسير ، وأسأل الله خاتمة خير ، وأنا أرجو أن يكون ما نسبني إليه وليّ النعمة ، أدام الله علوه ، من الظلم والعدوان مطاوعة ومزاحاً ، فإن كان اعتقاداً فلا محي الويل ، وسال بي السيل . فأما الخراج وتوابعه فوالله ما أحوج عاملاً إلى اقتضائه ، إنما الحديث في جزافٍ يطلب ، ومحال يكتب . فأما حقوق الديوان أصلاً وفرعاً فلا يدعى العمال على باقياً إلا غرمت للدرهم ديناراً . أجمنون أنا ! وأما الشركاء فهم يفدونني بالأمهات والآباء . وقد سمع الشيخ الجليل كلامهم والذكري تنفع المؤمنين .

ومما أطرف به المجلس العالي ، زاده الله شرفاً ، أنه كان في جيرتنا رجل يكنى أبا الهول ، كنا نسميه أسطوانة المسجد لكثرة صلاته ، وكان له عمّ موسر لا عقب له ، فرزق ولداً على كبر السن . فحمل أبا الهول فرط غمّه ، أن زوى الله عنه ميراث عمّه . على ترك الصلاة أصلاً ، فكان لا يؤدّي فرضاً ولا نفلاً ، ولا يردّ سلاماً ، ولا يعمل في الخير عملاً ...

وقد وجدت لأبي الهول عدلاً^(١) ، وهو أبو فلان . كان فيما مضى يعتق في كل شهر عبداً ، ويصلي بالليل ورداً ، ويتخذ مصانع وربطاً ، فرجع من الحضرة ، وقد سلخه الله من كل خير ، وضربه في قالب غير ، فهو الآن لا يشهد جامعاً ولا جمعة ، ولا يصلي في الظاهر ركعة ، ولا يعطي فقيراً حبة ، ولا يرزق طفل منه محبة . وقد اتخذ نقباء وأعواناً ، وارتبط رجاله وفرساناً . وقد ملأ الرستاق والبلد أجمعاً^(٢) . وما سجن أحد قبلي على سعاية ، ولولا أمر خصني لرأيت حقاً لله أن أنهض إلى المجلس العالي لتصوير حاله ، وقد طويت هذا الكتاب على ما عاملني

(١) مماثل .

(٢) خرائب .

به ، وإذا كانت هذه حالي ، وأنا أمشي بالنهار على الماء ، وأخرج بالليل إلى السماء ، علم الشيخ الجليل حال العامة . وإذا أنعم بالنظر في الرقعة التي طويت كتابي هذا عليها ، وفي جواب القاضي في آخرها وعلى ظهرها ، علم صدق ما يقوله العبد . وللشيخ الجليل في تأهيل العبد للجواب وزجر هذا الطويل عما يتعاطاه رأيه العالی إن شاء الله .

الوجه اللحييم

وكتب إليه أيضاً في شأن أبي البختری :

جزى الله الشيخ الجليل ، السيد النبيل ، أفضل ما جازى مولى عن عبده ، وأضعف الله له من عنده ، ومن قال جزاك الله خيراً فقد أولى جميلاً ، وأعطى جزيلاً ، وما قصر من اتخذ الله وكيلاً . وما بي ، أدام الله تمكين الشيخ الجليل ، مالٌ حصل ، أو حقٌ وصل . إني لا أعدم في كنفه المال ، وأبلغ دولته الآمال . ولكن أبو البختری حماني لذيد النوم ، ومنعني بياض اليوم . أنى يكون مثلي وأنا سحتب^(١) ضرب ، يعبث به صفعان كأنه دربٌ ، وكنت أسمع بطرار^(٢) كأنه النبل ، ولم أسمع بمختال كأنه الطبل ، ويقولون لص كالحية في الظلم ، وطارار كالزَّم^(٣) ، فأما طرار كالسَلَم^(٤) ، ولص في طول المنارة ، وعرض الغرارة ، فلا إلا هذا الحر ، وعنوان الأحق كنيته ، ثم بنيته ، ثم حليته ، ثم مشيته ، والله ما أعرف معنى أبي البختری ، فهلا أبو حامد ، وأبو خالد ، وإن امرأة تقعد مدة تعصر بطنها

(١) جرى .

(٢) لص يشق الثوب لسلب ما فيه .

(٣) السهم .

(٤) شجرة كبيرة .

وظهرها ، وتعدّ يومها وشهرها ، ثم تسمّيه أبا البختري لرعناء لا تستحق مهرها ،
 وخليفة أن تطمّ نهرها ، فلا تلد دهرها . ثم الوجه اللّحيم ، لا يحمله كريم ، والأنف
 السمين ، لا ينقله الأمين ، والقطف سير الحمير ، والهرولة مشية الخنازير .

مجمع الرذائل

وكتب إلى عمار بن الحسين :

ما أجد لعمّار مثلاً إلا الغراب ، لا يقع إلا مذموماً على أى جنب وقع ، وإن
 لعب فروعة النذير ، وإن حجل فشية الأسير ، وإن شحج فصوت الحمير ، وإن
 أكل فدبر البعير ، وإن سرق فبلغة الفقير . كذلك عمّار إن حذفت عينه
 فالحين^(١) ، وإن حذفت ميمه فالشين ، وإن حذفت راؤه فالرين ، وإن صحف
 خطه فالمين^(٢) ، وإن لاصقته فالمعاذير الكاذبة ، وإن استقصيته فالوجه العبوس ،
 وإن صدقته فالظفر اللّثيم ، وإن كذبتة فالعقاب الإليم ، وإن زرتة فالحجاب
 الثقيل ، وإن لم تزره فالعتاب الطويل .

تعريض

وكتب في نقض قصيدة أبي بكر الخوارزمي :

سألت ، أمتع الله بك عن الخوارزمي وشعره ، وقلت إنى لأجد فيه بيتاً
 لورؤى في المنام لأوجب الغسل حساً ، وبعده بيتاً إذا سرد ينقض الطهارة مساً ،
 ولعمري إن هذين البيتين لو كانا تينتين ما نبتتا في أرض ، أو تمرتين ما جنيتا من

(١) الحين : الهلاك .

(٢) المين : الكذب .

غصن . فكذلك إذا كانا شعرين يبعد أن يصدر عن صدر ، أو يطبع من طبع ،
أو يصبأ على قالب قلب ، أو يكونا نفسى نفس ، فقد يسمن الشاعر ثم يغث ،
ويجيد القائل ثم يرث ، ولكن لا كما تراه في شعر أبي بكر . وما كنت
لأكشف تلك الأسرار ، وأهتك هذه الأستار ، وأظهر منه العار والعوار ، لولا
ما بلغنا عنه من اعتراض علينا في ما أملينا ، وتجهيز قدح علينا في ما روينا ، من
مقامات الإسكندري ، من قوله إنا لا نحسن سواها ، وإنا نقف عند منتهائها . ولو
أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتريات . ثم
عرضها على الأسماع والضماير ، وأهداها إلى الأبصار والبصائر ، فإن كانت تقبلها
ولا تزجها ، أو تأخذها ولا تمجها ، كان يعترض علينا بالقدح ، وعلى إملائنا بالجرح ،
أو يقصر سعيه ويتداركه وهنه ، فيعلم أن من أملى من مقامات الكدية أربعمئة
مقامة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ،
حقيق بكشف عيوبه . والسلام .

ساكن الإصطبل

وكتب إليه أيضاً :

قد بعث إلى الشيخ ، أطال الله بقاءه ، بأصل مال مجونه ، وأصان إن شاء الله
عن فروعه ، فأما القسمة الواقعة لفلان فلو كان حمارى لنفشت على بطنه التبن ،
ونقلت على ظهره اللبن . أفأؤدى عنه الغرامة ، لا ولا كرامة ، أنا والله لا أربط
في الإصطبل ، مثل ذلك الطبل ، إني لأنفس بالعذار ، على ذلك الحمار . من ذلك
الثور ، حتى يحتمل منه الجور ! الموت ولا هذا الصوت ، والمنية ، ولا هذه
الدنية ، والسلام .

هـ — من الرسائل الأهلية :

إغراء

كتب إلى أبيه يستقدمه إلى هراة :

كتابي ، أطال الله بقاء سيّدنا ، من بوشنج ، أسوة بيعقوب في ولده ، إذ ظعن
إليه من بلده ، وليس العائق سور الأعراف^(١) ، ولا رمل الأحقاف ، ولا جبل
قاف^(٢) ، فلم لا ينشط ، والله لا يضيع بذلك المكان درهماً إلا عوّضته ديناراً ،
ولا يعدم هناك داراً ، إلا أفدته ديناراً . أخاف والله أن أموت وفي النفس حاجة
لم أقضها ، ومُنِيّةٌ لم أحظّ ببعضها . لا يفعل سيّدنا الشيخ ، والضنُّ بالولد أولى من
الضنِّ بالبلد . وقد رسمت لموصل كتابي هذا أن ينقده مئة دينار بشرط أن يخرج ،
وأن يرتب له عمارة شتوية تسعه والشيخ الفاضل العمّ فليتفضلاً ، وليقوما ويرحلا .
ويستصحب الأخ أبا سعيد ، وليأتني بأهله أجمعين ، فما يعجبني لقاء ليس له بقاء ،
ولا وصل بعده فراق . فإن لم يكن استصحب القوم فلا يتأخر بنفسه ، فسيرد
على خمسمائة نيران ، وألف أكّار ، وأحوالٍ منتظمة وأسباب مستقيمة .

غيري خالك

وكتب إلى ابن أخته :

أنت ولدي ما دمت والعلم شأنك ، والمدرسة مكانك ، المحبرة حليفك ، والدفتري
أليفك ، فإن قصّرت ولا إخالك ، فغيري خالك ، والسلام .

(١) سور بين الجنة والنار .

(٢) جبل يقال إنه محيط بالأرض .

فضيلة القصد

وكتب أيضاً إلى وارث مال :

وصلت رقتك ياسيدي ، والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ،
ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاء عن الأعزّة رُشد كما أنه الغنى ، وقد مات الميت
فليحي الحى ، فاشدد على مالك بالخمس^(١) ، فأنت اليوم غيرك بالأمس .

قد كان ذلك الشيخ ، رحمه الله ، وكيلك ، تضحك ويبكى لك ، وقد موّلك
بما ألف بين سُرّاه^(٢) وسيره ، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره . وسيعجم
الشیطان عودك^(٣) فإن استلانه رماك بقوم يقولون : خير المال ما أُتلف بين الشراب
والشباب ، وأنفق بين الحباب^(٤) والأحباب ، والعيش بين الأقداح والقِداح^(٥) ،
ولولا الاستعمال لما أريد المال . فإن أطعتهم فالיום فى الشراب ، وغداً فى الخراب ،
واليوم واطرباً للكاس ، وغداً واطرباً من الإفلاس .

يا مولاي ، ذلك الخارج من العود يسميه العاقل فقراً ، والجاهل نقراً ، وذلك
المسموع من الناي هو اليوم فى الأذان زمر ، وغداً فى الأبواب سمر^(٦) والعمر مع
هذه الآلات ساعة ، والقنطار فى هذا العمل بضاعة ، وإن لم يجد الشيطان مغمزاً
فى عودك من هذا الوجه رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينك ، فتجاهد قلبك
وتحاسب بطنك ، وتناقش عينك ، وتمنع نفسك ، وتبوء فى دنياك بوزرك ، وتراه

(١) يقصد الأصابع الخمس .

(٢) السرى : السير ليلاً .

(٣) بحجم العود : امتحنه .

(٤) الفقاقيع التى تطفو عند مزج الحمرة .

(٥) قداح الميسر .

(٦) شدة بالمسار .

في الآخرة في ميزان غيرك . لا . ولكن قصداً بين الطريقين ، وميلاً عن الفريقين ،
لا منع ولا إسراف . والبخل فقر حاضر وضير عاجل ، وإنما يبخل المرء خيفة
ما هو فيه ، فليكن لله في مالك قسط ، والمروءة قسم ، فصل الرحيم ما استطعت ،
وقدر إذا قطعت . فلأن تكون في جانب التقدير ، خير لك من أن تكون في
جانب التبذير . - حياة صكونة في الزراعة والتجارة والراحة
في الحوائيت وبين الأصدقاء .

٢ - المقامات

١ - من المقامات الأدبية

المقامة القرية

الراوية

الفردوسية الأهل رهي في بعيداً

حدثنا عيسى بن هشام قال : طرحتني النوى مطارحها حتى إذا وطئت جرجان

الأقصى ، فاستظهرت على الأيام بصياع أجلت فيها يد العماره ، وأموال وقفتها

على التجارة ، وحانوت جعلته مثابة ^(١) ، ورققة اتخذتها صحابة ، وجعلت للدار ،

حاشيتي النهار ، ولحانوت ما بينهما ، فجلسنا يوماً نتذاكر القريض وأهله ، وتلقاءنا

شاب قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى إذا

مال الكلام بنا ميله ، وجرّ الجدال فينا ذيله ، قال : قد أصبتم عذيقه ، ووافيتم

جذيله ^(٢) ، ولو شئت للفظت وأفضت ، ولو قلت لأصدرت وأوردت ، ولجلوتالحق في معرض بيان يسمع الصم ، وينزل العصم ^(٣) .الصدر : العودة من البعد
الورود : الذهاب إلى البعد

(١) مرجع . منزل الوحوش من قمم الجبل - كناية عن البيان الساحر

(٢) أخذها من قول من قال : أنا عذيقها المرجب وجذيلها المحكك ، أي أنه ابن

بجذتها وعمدة فيها .

(٣) إشارة إلى قول امرئ القيس : فأنزل منه العصم من كل منزل . والعصم : جمع أعصم وهو الظبي الذي في ذراعه بياض .

نقص الأراشي
استهنت على العيش
والله أعلم

وعدتنا بسلام جميل

فقلت : يا فاضلُ اذنُ فقد مَنّيت ، وهاتِ فقد أثنيت . فدنا وقال : سلوني أجيبكم ، واسمعوا أعجبكم ، فقلنا : ما تقول في امرئ القيس قال : هو أول من وقف بالديار وعَرَصاتها . واغتنى والطير في وُكُناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يجد القول راغباً ، فَفَضَلَ مَنْ تَفَتَّقَ لِلْحِمْلَةِ لِسَانُهُ ، وانتجع للرجبة بَنَانُهُ . ^{الذي لا يوا يحبون طلباً للحفصة .}

قلنا : فما تقول في النابغة ؟ قال : يُثَلِّبُ إذا حنق ، ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب ، ولا يرمى إلا صائباً . ^{يكون} يَكُونُ بارع في الصجاء ^{وعند رياته للصمان معروضة} قلنا فما تقول في زهير ؟ قال : يذيبُ الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه .

قلنا : فما تقول في طرفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أغلاقُ خزائنه .

قلنا : فما تقول في جرير والفرزدق ، وأيهما أسبق ؟ فقال : جرير أرقُّ شعراً ، وأغزرُ غزراً ، والفرزدقُ أمتنُ صخراً ، وأكثرُ فخراً ، وجرير أوجعُ هجواً ، وأشرفُ يوماً . والفرزدق أكثرُ رَوْماً ، وأكرمُ قوماً ، وجرير إذا نسب أشجى ، وإذا ثلب أردى ، وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا افتخر أجزى ، وإذا احتقر أزرى ، وإذا وصف أوفى .

قلنا : فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر من المعاني حظاً ، والمتأخرون ألطف صنعاً وأرقّ نسجاً .

قلنا : فلو أريت من أشعارك ، ورويت لنا من أخبارك ، قال : خذها في

معرض واحد ، وقال :

أما تَرَوْنِي أَتَغَشَّى طِمْرًا^(١) ممتطياً في الضَّرِّ أَمْرًا مُرًّا
مُضْطَبِنًا^(٢) عَلَى اللَّيَالِي غَمْرًا مُلَاقِيًا مِنْهَا صُرُوفًا حُمْرًا
أَقْصَى أَمَانِي طُلُوعُ الشَّعْرِ^(٣) فَقَدْ عُنِينَا بِالْأَمَانِي دَهْرًا
وَكَانَ هَذَا الْحُرُّ أَعْلَى قَدْرًا وَمَاءُ هَذَا الْوَجْهِ أَغْلَى سِعْرًا
ضَرَبْتُ لِلْسَّرِّ قِبَابًا خُضْرًا فِي دَارِ دَارٍ وَإِوَانٍ كَسْرِي
فَانْقَلَبَ الدَّهْرُ ابْطِنَ ظَهْرًا وَعَادَ عُرْفُ الْعَيْشِ عِنْدِي نَكْرًا
لَمْ يَبْقَ مِنْ وَفْرِي إِلَّا ذِكْرًا ثُمَّ إِلَى الْيَوْمِ هَلُمَّ جَرًّا
لَوْلَا عَجُوزٌ لِي بِسُرٍّ مَن رَا^(٤) وَأَفْرَحُ دُونَ جِبَالٍ بُصْرِي
قَدْ جَلَبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ ضُرًّا قَتَلْتُ يَا سَادَةَ نَفْسِي صَبْرًا

قال عيسى بن هشام : فأنته ما تاح ، وأعرض عنا فراح ، فجعلت أنفيه وأثبته ،
وأنكره وكأني أعرفه ، ثم دلتني عليه ثنياه فقلت : الإسكندري والله ، فقد كان
فارقنا خشفًا^(٥) ، ووافانا جلفًا ، ونهضت على إثره ، ثم قبضت على خصره ،
وقلت : أأنت أبا الفتح ، ألم نربك فينا وليدًا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ،
فأى عجوز لك بسر من را ؟ ! فضحك إلي وقال :

وَيَحَكْ هَذَا الزَّمَانُ زُورُ فَلَا يَغْرُنْكَ الْغُرُورُ
لَا تَلْتَزِمُ حَالَةً وَلَكِنْ دُرُّ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ

(١) ثوب بال .

(٢) حاملاً .

(٣) كركب .

(٤) سر من را أو سر من رأى : بلدة قرب بغداد .

(٥) الخشف : ولد الظبي ويريد به هنا غلاماً .

المقامة الجاحظية

حدَّثنا عيسى بن هشام قال : أثارتنى ورفقةٌ وليمةٌ فأجبت إليها للحديث المأثور
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دعيتُ إلى كُرَاعٍ^(١) لأجبت ، ولو أهدى
إلى ذراعٍ لقبلت ، فأفضى بنا السير إلى دار :

تركتُ والحسنَ تأخذهُ تنتقى منه وتنتخبُ
فانتقتُ منه طرائفه واستزادتُ بعضَ ما تهبُ

قد فرّش بساطها ، وبسطت أنماطها ، ومدَّ سَمَاطُها ، وقومٌ قد أخذوا
الوقت بين آسٍ مخضود^(٢) ، ووردٍ منضود ، ودَنٍّ مفصود ، ونايٍ وعود ،
فصرنا إليهم وصاروا إلينا . ثم عكفنا على خِوانٍ قد ملئت حياضه ، ونوّرتُ
رياضه ، واصطفّت جفانه ، واختلفت ألوانه ، فمن حالِكٍ بإزائه ناصع ، ومن
قانٍ تلقاه فاقع ، ومعنا على الطعام رجلٌ تسافر يده على الخِوان ، وتسفر بين
الألوان ، وتأخذ وجوه الرُغفان^(٣) ، وتقفاً عيون الجفان ، وترعى أرض الجيران ،
وتجولُ في القصعة ، كالرُخ^(٤) في الرقعة . يزحم باللقمة للقمّة ، ويهزم بالمضغة
المضغة ، وهو مع ذلك ساكت لا ينبسُ بحرف . ونحن في الحديث نجري معه
حتى وقف بنا على ذكر الجاحظ وخطابته ، ووصف ابن المقفع وذرايته ، ووافق
أول الحديث آخر الخِوان ، وزلنا عن ذلك المكان ، فقال الرجل : أين أنتم من
الحديث الذي كنتم فيه ؟ فأخذنا في وصف الجاحظ ولَسَنِهِ^(٥) ، وحسن

(١) الكراع : مستدق الساق .

(٢) ملوى .

(٣) جمع رغيف .

(٤) واحد من حجارة الشطرنج .

(٥) اللسن : طلاقة اللسان .

سَنَنَه في الفصاحة وسُنَنَه فيما عرفناه ، فقال : يا قوم لكل عمل رجال ، ولكل مقام مقال ، ولكل دار سكان ، ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم ، لبطل ما اعتقدتم .

فكلُّ كَشَرَ له عن ناب الإنكار ، وأشمَّ بأنف الإكبار ، وضحكت له لأجلَب ما عنده ، وقلت : أفِدْنَا وزِدْنَا ، فقال : إن الجاحظ في أحدِ شِقَي البلاغةِ يَقِطِف^(١) ، وفي الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصِّر نظمه عن نثره ، ولم يُزِرْ كلامه بشعره ، فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً ؟

قلنا : لا ، قال : فهموا إلى كلامه ، فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام^(٢) يستعمله ، نفورٌ من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ فقلنا : لا ، قال : فهل تحب أن تسمع من الكلام ما يخفف عن منكبيك وينم على ما في يديك ، فقلت : إى والله . قال : فأطلق لي عن خِنْصْرِكَ^(٣) ، بما يعين على شكرك ، فنلتته ردائي ، فقال :

لعمري الذي ألقى على ثيابه لقد حُشِيت تلك الثيابُ به مجدا
فتى قمرته المكرماتُ رداءه وما ضربت قِدْحاً^(٤) ولا نصبتُ زرداً^(٥)
أعدُ نظراً يا من حبانى ثيابه ولا تدع الأيامَ تهدمُنِي هدّاً
وقل للأولى إن أسفروا أسفروا ضحى وإن طلعا في غمّةٍ طلعا سعدا

(١) يقصّر .

(٢) أى الكلام الذى لا تزينه المحسنات البديعية والبيانية .

(٣) يعنى هات أعطنا شيئاً ، أو كما يقول المنجمون : بيض الكتاب ، أى ادفع شيئاً .

(٤) أحد السهام التى يتقارون بها .

(٥) الزرد تطلق اليوم على ما يسمونه (طاولة الزهر) .

صَلُّوا رَحِمَ الْعَلِيَا وَبَلُّوا لَهَايَا^(١) فخيرُ النَّدَى مَا سَحَّ وَابِلُهُ نَقْدَا
 قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَارْتَاخَتْ الْجَمَاعَةُ إِلَيْهِ ، وَانْثَالَتْ الصَّلَاتُ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ
 لَمَّا تَأَنَسْنَا : مَنْ أَيْنَ مُطْلَعُ هَذَا الْبَدْرِ ، فَقَالَ :

إِسْكَندَرِيَّةُ دَارِي لَوْ قَرَّ فِيهَا قَرَارِي
 لَكِنَّ لَيْلِي بِنَجْدٍ وَبِالْحِجَازِ نَهَارِي

ب - من المقامات الفكاهية

المقامة المَضِيرِيَّة

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ، ومعى أبو الفتح الإسكندري ،
 رجلُ الفصاحة يدعوها فتجيبة ، والبلاغة يأمرها فتطيعه ، وحضرنا معه دعوة
 بعض التجار فقدّمت إلينا مَضِيرَةٌ^(٢) تُثْنِي عَلَى الْخِضَارَةِ ، وَتَتَرَجَّجُ فِي الْغَضَارَةِ ،
 وَتُوْذِنُ بِالسَّلَامَةِ ، وَتَشْهَدُ لِمَعَاوِيَةَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ ، بِالْإِمَامَةِ ، فِي قِصْعَةٍ يَزَلُّ عَنْهَا
 الطَّرْفُ ، وَيَمُوجُ فِيهَا الظَّرْفُ ، فَلَمَّا أَخَذْتُ مِنَ الْخَوَانِ مَكَانَهَا ، وَمِنَ الْقُلُوبِ
 أَوْطَانَهَا ، قَامَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيُّ يَلْعَنُهَا وَصَاحِبَهَا ، وَيَمَقِّتُهَا وَآكِلَهَا ، وَيُثَلِّبُهَا
 وَطَائِحَهَا ، وَظَنَنَاهُ يَمْرَحُ ، فَإِذَا الْأَمْرُ بِالضَّدِّ ، وَإِذَا الْمَزَاحُ عَيْنُ الْجَدِّ ، وَتَنْحَى
 عَنِ الْخَوَانِ ، وَتَرْكُ مَسَاعِدَةِ الْإِخْوَانِ ، وَرَفْعُهَا فَارْتَفَعَتْ مَعَهَا الْقُلُوبُ ، وَسَافَرَتْ
 خَلْفَهَا الْعَيُونُ ، وَتَحَلَّيْتُ لَهَا الْأَفْوَاهُ^(٣) ، وَتَلَمَّظْتُ لَهَا الشِّفَاهُ ، وَاتَّقَدْتُ لَهَا
 الْأَكْبَادُ ، وَمَضَى فِي إِثْرِهَا الْفُؤَادُ ، وَلَكِنَّا سَاعَدْنَاهُ عَلَى هَجْرِهَا ، وَسَأَلْنَاهُ عَنْ

(١) حمة مدلاة في ستمف الحنك .

(٢) لعلها تشبه ما نسميه اليوم كبة أرمنية أو الكبة بلبنية .

(٣) سال لعابها .

أمرها ، فقال : قصّتي معها أطول من مصيبتى فيها ، ولو حدّثتكم بها لم آمن المقت وإضاعة الوقت ، قلنا : هات .

قال : دعانى بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمنى ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم^(١) ، إلى أن أحبته إليها وقتنا ، فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ، ويفدّيهما بمهجته ، ويصف حدّقهما فى صنعتهما ، وتأنقهما فى طبخهما ، ويقول : يا مولاي ، لو رأيتها ، والخرقة فى وسطها ، وهى تدور فى الدور ، من التنوّر إلى القدور ، ومن القدور إلى التنوّر ، تنفث بفيها النار ، وتدقّ يديها الأبرار . ولو رأيت الدخان وقد غبّر فى ذلك الوجه الجميل ، وأثر فى ذلك الخدّ الصقيل ، لرأيت منظرأ تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقتنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليته ، وأن يسعد بظعينته ، ولا سيما إذا كانت من طينته . وهى ابنة عمى لَحًا . طينتها طينتى ، ومدينتها مدينتى ، وعمومتها عمومتى ، وأرومتها أرومتى . لكنها أوسع منى خلقاً ، وأحسن خلقاً . وصدعتنى بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلته . ثم قال : يا مولاي ، ترى هذه الحلة . هى أشرف محالّ بغداد يتنافس الأخيار فى نزولها . ويتغاير الكبار فى حلولها . ثم لا يسكنها غير التجار . وإنما المرء بالجار . ودارى فى السّطة^(٢) من قلاذتها ، والنقطة من دائرتها . كم تقدّر يا مولاي ، أنفق على كل دار منها ؟ قلّه تخميناً ، إن لم تعرفه يقيناً . قلت : الكثير . فقال : يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط ! وتنفس الصّعْداء ، وقال سبحان من يعلم الأشياء .

وانتهينا إلى باب داره . فقال : هذه دارى كم تقدّر يا مولاي ، أنفقتُ على هذه الطاقة . أنفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتهما

(١) أهل الكهف ، وكلبهم مشهور .

(٢) الوسط .

وشكلها؟ أرأيت بالله مثلها! انظر إلى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها فكأنما خُطَّ بالبركار. وانظر إلى حذق النجار في صنعة هذا الباب. اتخذه من كم؟ قل: ومن أين أعلم. هو ساجّ من قطعة واحدة لا مأروض^(١) ولا عفن. إذا حرك أن، وإذا نُقر طنّ. من اتخذه يا سيدي؟ اتخذه أبو إسحق بن محمد البصرى، وهو، والله، رجل نظيف الأثواب. بصير بصنعة الأبواب، خفيف اليد في العمل. لله درّ ذلك الرجل! بحياتي لا استعنت إلا به على مثله.

وهذه الحلقة تراها؟ اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير معزّية، وكم فيها يا سيدي من الشبه؟ فيها ستة أرطال، وهي تدور بلولب في الباب. بالله دورها، ثم أنقرها وأبصرها، وبحياتي عليك لا اشتريت الخلق إلا منه فليس يبيع إلا الأعلاق.

ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال: عمرّك الله يا دار، ولا خرّ بك يا جدار، فما أمتنَ حيطانك، وأوثق بنيانك، وأقوى أساسك! تأمل بالله معارجها وتبين دواخلها وخوارجها، وسلنى: كيف حصلتها، وكَم من حيلة احتلتها، حتى عقدتها؟ كان لى جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن. مات رحمه الله وخلف خلفاً أتلفه بين الخمر والزمر، ومزّقه بين النرد والقمر، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار، إلى بيع الدار، فيبيعها في أثناء الضجر، أو يجعلها عرضة للخطر. ثم أراها، وقد فاتني شراها، فأتقطع عليها حسرات، إلى يوم المات. فعمدت إلى أثواب لا تنض^(٢) تجارتها، فحملتها إليه وعرضتها عليه، وساوّمته على أن يشتريها

(١) المأروض. الذى أكلته الأرضة.

(٢) كاسدة، غير نافقة.

نسيّة^(١) ، والمدير يحسب النسيّة عطية ، والمتخلف يعتدّها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال ففعل وعقدها لي ، ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترقّ فأتيته فاقتضيته ، واستمهاني فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرتة ، وسألته أن يجعل داره رهينة لدى ، ووثيقة في يديّ ، ففعل . ثم درّجته بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لي بجدّ صاعد ، وبخت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساعٍ لقاعد ، وأنا بحمد الله مجدود . في مثل هذه الأحوال محمود ، وحسبك يامولاي ، أني كنت منذ ليال نائماً في البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب ، فقلت : من الطارق المنتاب ؟ فإذا امرأة معها عقدٌ لآل . في جلدّة ماء ورقة آل . تعرضه للبيع ، فأخذته منها إخذه خلّس ، واشتريته بثمانٍ بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله ودولتك ، وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدي في التجارة ، والسعادة تنبسط الماء من الحجة ، الله أكبر ! لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك . اشتريت هذا الحصير في المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفرات ، وقت المصادرات وزمن الغارات . وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد . والدهر حبلى ليس يدرى ما يلد . ثم اتفق أني حضرتُ باب الطاق . وهذا يعرض في الأسواق . فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً . تأمل بالله دقته ولينه ، وصنعتة ولونه . فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا في الندر . وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله . وله ابن يخلفه الآن في حانوته لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده . فبحياتي لا اشتريت الحصر إلا من دكانه ، فالمؤمن ناصحٌ لإخوانه ، لا سيما من تحرّم بخوانه .

ونعود إلى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة ، يا غلام ، الطست والماء ،

فقلت : الله أكبر ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج . وتقدم الغلام ، فقال :
 ترى هذا الغلام ؟ إنه رومي الأصل عراقي النشء . تقدم يا غلام واحسر عن رأسك ،
 وشمر عن ساقك ، وانفض عن ذراعك ، وافتر عن أسنانك ، وأقبل وأدبر . ففعل
 الغلام ذلك ، وقال التاجر : بالله من اشتراه ! اشتراه والله ، أبو العباس ، من
 النخاس . ضع الطست ، وهات الإبريق ، فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلبه
 وأدار فيه النظر ثم نقره ، فقال : انظر إلى هذا الشبه ^(١) كأنه جذوة الذهب ، أو
 قطعة من الذهب ، شبه الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلقان ^(٢) الأعلاق ،
 قد عرف دور الملوك ودارها . تأمل حسنه وسلي : متى اشتريته ! اشتريته والله
 عام المجاعة ، وادخرته لهذه الساعة . يا غلام ، الإبريق ، فقدّمه ، وأخذه التاجر
 فقلبه ، ثم قال : وأنبوه منه . لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ،
 ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدست ، ولا يحسن هذا الدست إلا في هذا
 البيت . ولا يحمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف .

أرسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه
 أزرق كعين السنور ، وصاف كقضيبي البلور ، استقي من الفرات واستعمل بعد
 البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السقاء ، الشأن في
 الإناء ، لا يدلّك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه . وهذا المنديل ! سلني
 عن قصته . فهو نسج جرجان ، وعمل أرجان ، وقع إلى فاشتريته ، فاتخذت
 امرأتى بعضه سراويلًا ، واتخذت بعضه منديلا ، دخل في سراويلها عشرون ذراعًا ،
 وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعًا ، وأسلمته إلى المطرّز حتى صنعه كما تراه
 وطرزه . ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادخرته للظرف ، من

(١) الشبه : النخاس الأصفر أو البرونز .

(٢) الرث البالي .

الأضياف ، لم تذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء لماقيها ، فلكل علق يوم ،
ولكل آلة قوم .

يا غلام ، الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع^(١) .
والطعام ، فقد كثر الكلام ، فأتى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المسكان ،
ونقره بالبنان ، وعجمه بالأسنان ، وقال : عمر الله بغداد فما أجود متاعها ، وأظرف
صنائعها !

تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر إلى عرض متنه ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده
وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فمتى الأكل ! ؟ فقال : الآن . عجّل
يا غلام ، الطعام . لكنّ الخوان قوائمه منه .

قال أبو الفتح : فجاشت نفسي وقلت : لقد بقي الخبز وآلاته ، والخبز
وصفاته ، والحنطة من أين اشتريت أصلا ، وكيف اكرتري لها حملا ، وفي أي
رحى طحن ، وإجانة^(٢) عجّن ، وأي تنّور سجر ، وخباز استأجر ، وبقي الحطب
من أين احتطب ، ومتى جلب وكيف صفف حتى جفف وجبس ، حتى يلس .
وبقي الخبّاز ووصفه ، والتلميذ ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخمير وشرحه ، والملح
وملاحظته ، وبقيت السكرجات^(٣) من اتخذها ، وكيف انتقذها^(٤) ، ومن
عملها ، والخلّ كيف انتقى عنه ، أو اشترى رطبه ، وكيف صهرجت معصرته
واستخلص له . وكيف قير حبه^(٥) ، وكـم يساوى دنه ؛ وبقي البقل كيف
احتيل له حتى قطف ، وفي أي مبقلة رصف ، وكيف تؤنّق حتى نظّف ، وبقيت

(١) المجالدة والمقاتلة .

(٢) المكن الذي يعجن فيه .

(٣) آنية الطعام .

(٤) كيف اتصلت إليه بالشراء .

(٥) الحابية .

المضيرة كيف اشترى لحمها ، ووُقِيَ شحمها ، ونصبت قدرها ، وأُجِّبت نارها ، ودُقَّتْ أبقارها ، حتى أجيد طبخها وعُقِّد مرقها ، وهذا خطب يطم ، وأمر لا يتم . فقامت ، فقال : أين تريد ؟! فقلت : حاجة أقضيها ، فقال : يامولاي تريد كنيفاً يُزري بريعي الأمير ، وخريفي الوزير ، قد جُصَّصَ أعلاه وصهرح أسفله ، وسُطِّحَ سقفه وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه الذَّرُّ فلا يعلق ، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق ، عليه بابٌ غيرانه ^(١) من خليطى ساجٍ وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه . فقلت : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب .

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت في الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح يا أبا الفتح ! المضيرة . وظن الصبيان أن المضيرة لقب لى فصاحوا صياحه فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقى رجلٌ الحجرَ بعمامته فغاص في هامته . فأخذت من النعال بما قدُمَ وحدُث ، ومن الصفع بما طاب وخبث ، وحشرت إلى الحبس ، فأقمت عامين في ذلك النحس ، فنذرت أن لا آكل مضيرةً ما عشت . فهل أنا في ذاي آل همدان ظالم .

قال عيسى بن هشام : فقبلنا عذره ونذرنا نذره ، وقلنا : قديماً جنت المضيرة على الأحرار ، وقدمت الأراذل على الأخيار .

ج - من المقامات القصصية

المقامة البشرية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكاً فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها وقال :
ما رأيت كالיום ! فقالت :

أعجبَ بشرًا حورٌ في عيني وساعدُ أبيضُ كاللجين
ودونه مسرح طرف العين خصانة ترفل في حجلين^(١)
أحسن من يمشى على رجلين لو ضمَّ بشرٌ بينها وبيني
أدام هجرى وأطال يني^(٢) ولو يقيس زينها بزيني
لأسفر الصبح لذي عينين

قال بشر : ويحك ! من عنيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة ، فقال : أهى من الحسن بحيث وصفت . قالت : وأزيد وأكثر ، فأنشأ يقول :

ويحك يا ذات الثنايا البيض^(٣) ما خلّتني منك بمستعيض
فالآن إذ لوحت بالتعريض خلوت جواً فاصفري وبيضي^(٤)
لا ضمَّ جفناي على تغميض ما لم أشل عرضي من الخضيض^(٥)

(١) خصانة : ضامرة الكشح . الحجل الخلخال .

(٢) البين : الفراق .

(٣) الثنايا : الأسنان .

(٤) إشارة إلى قول كليوب وائل للقبرة التي نزلت حماء :

يا لك من قبرة بمحجر خلا لك الجوف فيبيضي واصفري

ونفري ما شئت أن تنفري

(٥) أشل : أرفع .

فقلت :

كم خاطب في أمرها أليحاً وهي إليك ابنة عمّ ليحاً
ثم أرسل إلى عمه يخاطب ابنته ، ومنعه العمّ أمينته ، فألى ألا يرعى ^(١) على
أحد منهم إن لم يزوجه ابنته ، ثم كثرت مضراته فيهم ، واتصلت معرفته إليهم ،
فاجتمع رجال الحي إلى عمه وقالوا : كيف عنا مجنونك فقال : لا تلبسوني عاراً ،
وأمهلوني حتى أهلكه ببعض الحيل ، فقالوا : أنت وذاك ، ثم قال له عمه : إني
آليت أن لا أزوج ابنتي هذه إلا ممن يسوق إليها ألف ناقة مهراً ولا أرضاها
إلا من نوق خزاعة ، وغرض العمّ كان أن يسلك بشر الطريق بينه وبين خزاعة
فيفترسه الأسد ، لأن العرب قد كانت تحامت عن ذلك الطريق وكان فيه أسدٌ
يسمى داذاً وحيّة تدعى شجاعاً يقول فيهما قائلهم :

أفتك من داذاً ومن شجاعٍ إن يك داذاً سيّد السباع
فإنها سيّدة الأفاعي

ثم إن بشراً سلك ذلك الطريق فما نصّفه ^(٢) حتى لقي الأسد وقمص مهره
فنزله وعقره ، ثم اخترط سيفه إلى الأسد واعترضه ، وقطّعه ^(٣) ثم كتب بدم الأسد
على قميصه إلى ابنة عمه :

أفاطم لو شهدت ببطن خبتٍ وقد لاقى الهزبر أخاك بشراً
إذا لرأيت ليثاً زاراً ليثاً هزبراً أغلباً لاقى هزبراً
تبهنس ^(٤) ثم أحجم عنه مهري محاذرةً فقلت عُقرت مهراً

(١) يبق .

(٢) نصّفه : باغ منشّفه .

(٣) قطعه عرضاً .

(٤) تبختر .

أَنْزِلْ قَدَمِيَّ ظَهَرَ الْأَرْضَ إِنِّي
وَقُلْتُ لَهُ وَقَدْ أَبْدَى نَصَالاً^(١)
يَكْفِكُفُ غِيْلَةً إِحْدَى يَدَيْهِ
يُدِلُّ بِمَخْلَبٍ وَبِحَدِّ نَابٍ
وَفِي يُمْنَايَ مَاضِي الْحَدِّ أَبْقَى
أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا فَعَلْتُ ظَبَاهُ
وَقَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَخْشَى
وَأَنْتَ تَرُومُ لِلْأَشْبَالِ قُوْتًا
فَفَقِيمَ تَسُومٍ مِثْلِي أَنْ يُوَلِّيَ
نَصَحَتِكَ فَالْتَمَسْ يَالَيْثُ غَيْرِي
فَلَمَّا ظَنَّ أَنْ الْغَشَّ نَصَحِي
مَشَى وَمَشَيْتُ مِنْ أَسْدِينَ رَامَا
هَزَزْتُ لَهُ الْحُسَامَ فَخَلْتُ أَنِي
وَجَدْتُ لَهُ بِجَائِشَةٍ أَرْتَهُ
وَأَطْلَقْتُ الْمَهَنْدَ مِنْ يَمِينِي
فَحَرٌّ مَجْدَلًا بَدَمٍ كَأَنِي
وَقُلْتُ لَهُ يُعَزِّزْ عَلَيَّ أَنِي
وَلَكِنْ رَمَتْ شَيْئًا لَمْ يَرْمُهُ

رَأَيْتُ الْأَرْضَ أَثْبَتَ مِنْكَ ظَهْرًا
مَحْدَدَةً وَوَجْهًا مَكْفَهْرًا
وَيَبْسُطُ لِلْوُثُوبِ عَلَيَّ أُخْرَى
وَبِاللَّحْظَاتِ تَحْسِبُهُنَّ جَمْرًا
بِمَضْرَبِهِ قِرَاعُ الْمَوْتِ أَثْرًا^(٢)
بِكَاطِمَةِ غَدَاةٍ لَقِيتُ عَمْرًا
مِصَاوِلَةً فَكَيْفَ يَخَافُ ذُعْرًا
وَأَطْلُبُ لَابِنَةَ الْأَعْمَامِ مَهْرًا
وَيَجْعَلُ فِي يَدَيْكَ النَّفْسَ قَسْرًا
طَعَامًا إِنَّ لِحْمِي كَانَ مُرًّا
وَخَالَفَنِي كَأَنِّي قُلْتُ هُجْرًا
مَرَامًا كَانَ إِذْ طَلَبَاهُ وَعَرًّا
شَقَقْتُ بِهِ لَدَى الظَّالِمَاءِ فُجْرًا
بَأَنْ كَذَبْتُهُ مَا مَنَنْتُهُ غَدْرًا
فَقَدَّ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاعِ عَشْرًا
هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مَشْمَخْرًا
قَتَلْتُ مَنَاسِبِي جَلْدًا وَقَهْرًا
سِوَاكَ فَلَمْ أَطِقْ يَالَيْثُ صَبْرًا

(١) حديدية السيف وهو يعنى أنياباً .

(٢) الأثر : بضم الهمزة ندوب الجراح وثلمات السيوف .

تحاول أن تعلمنى فراراً لعمرُ أبيك قد حاولت نكراً
 فلا تجزعْ فقد لاقيت حرّاً يحاذرُ أن يُعابَ فمتَّ حرّاً
 فإنَّ تكُ قد قُتلتَ فليس عاراً فقد لاقيتَ ذا طرفين حرّاً
 فلما بلغت الأبيات عمه ندم على ^(١) ما منعه تزويجها ، وخشى أن تغتاله الحية
 فقام في أثره وبلغه وقد ملكته سورة الحية ، فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية
 فجعل يده في فم الحية وحكم سيفه فيها فقال :

بشرٌ إلى المجد بعيدٌ همُّهُ لما رآه بالعراء عمُّهُ
 قد ثكلته نفسه وأُمُّهُ جاشت به جائشةٌ تهمةُ
 قام إلى ابنٍ للفلا يؤمُّهُ فغاب فيه يدهُ وكَمُّهُ
 ونفسه نفسى وسمى سَمُّهُ

فلما قتل الحية قال عمه : إني عرضتك طمعاً في أمر قد ثنى الله عناني عنه ،
 فارجع لأزواجك ابنتي . فلما رجع جعل بشر يملأ فمه فخراً حتى طلع أمرد كشيْق
 القمر على فرسه مدججاً في سلاحه ، فقال بشر : يا عم ، إني أسمع حسَّ صيد ،
 وخرج فإذا بعلام على قيد ، فقال : ثكلتك أمك يا بشر ، إن قُتلت دودةٌ
 وبهيمة تملأ ماضيك فخراً ! أنت في أمان إن سلّمت عمك . فقال بشر : من
 أنت لا أم لك ، قال : اليومُ الأسود والموت الأحمر ، فقال بشر : ثكلتك
 من سلحتك ^(٢) . فقال : يا بشر ، ومن سلحتك .

وكرر كل واحد منهما على صاحبه ، فلم يتمكن بشر منه ، وأمكن الغلام
 عشرون طعنة في كلية بشر كلما مسّه شبا السنان ^(٣) حماه عن بدنه إبقاءً عليه ،

(١) ما مصدرية بمعنى أن .

(٢) من ألقنتك من بطنها .

(٣) شبا السنان : حده .

ثم قال : يا بشر كيف ترى ، أليس لو أردتُ لأطعمتك أنياب الرمح ؟ ثم ألقى
 رمحه واستقل سيفه فضرب بشراً عشرين ضربة بعرض السيف ولم يتمكن بشر
 من واحدة ، ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب في أمان ، قال : نعم ولكن
 بشرطة أن تقول لي من أنت ، فقال : أنا ابنك . فقال : يا سبحان الله
 ما قارنت عقيلة قط فأنت لهذه المنحة ! فقال : أنا ابن المرأة التي دلتك على ابنة
 عمك فقال بشر :

تلك العصا من هذه العصية^(١) هل تلد الحية إلا الحية
 وحلف لا ركب حصاناً ولا تزوج حصاناً^(٢) ، ثم زوج ابنة عمه لابنه .

المقامة الأسدية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلغني من مقامات الإسكندري ومقالاته
 ما يصغى إليه النفور^(٣) ، وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره ما يمتزج
 بأجزاء النفس رقة ، ويعمض عن أوهام الكهنة دقة ، وأنا أسأل الله بقاءه ،
 حتى أرزق لقاءه ، وأتعجب من قعود همته بحالته ، مع حسن آتته ، وقد ضرب
 الدهر شؤونه بأسداد^(٤) دونه ، وهلم جرّاً ، إلى أن اتفقت لي حاجة بحمص ،
 فشحذت إليها الحرص ، في صحبة أفراد كمنجوم الليل ، أحلاس^(٥) لظهور
 الخيل ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ، ونستأصل شافته ، ولم نزل نفرى أسنة
 النجاد بتلك الجياد ، حتى صرن كالعصى ، ورجعن كالقسي .

(١) العصا من العصية : مثل قديم فالعصا اسم فرس جذيمة الأبرش والعصية اسم أمها .

(٢) الحصان : بفتح الحاء المرأة العفيفة .

(٣) النفور : وزن فعول : الكثير النفار .

(٤) جمع سد .

(٥) ملازمين لها .

وتاح لنا وادٍ في سفح جبل ذي الاءِ وأثل^(١) كالعداري يسرحن الضفائر ،
وينشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا إليها ، ونزلنا نغور ونغور ، وربط الأفراس
بالأمراس ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا إلا صهيل الخيل . ونظرت إلى فرسى
وقد أرهف أذنيه ، وطمح بعينيه ، يجذ^(٢) قوى الحبل بمشافره ، ويخذ خد الأرض
بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال وقطعت الجبال ، وأخذت نحو
الجبال ، وطار كل واحد منا إلى سلاحه فإذا السبع في فروة الموت ، قد طلع
من غابه ، منتفخاً في إهابه ، كاشراً عن أنيابه ، بطرف قد ملئ صلفاً ،
وأنف قد حشى أنفاً ، وصدر لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا
خطب ملى ، وحادث مهم ، وتبادر إليه من سرعان^(٣) الرفقة فتي :

أخضر الجلدة في بيت العرب يملأ الدلو إلى عقد الكرب^(٤)

بقلب ساقه قدر ، وسيف كله أثر ، وملكته سورة الأسد فخانتته أرض
قدمه ، حتى سقط ليده وفه ، وتجاوز الأسد مصرعه إلى من كان معه ، ودعا
الحين أخاه بمثل ما دعاه فصار إليه ، وعقل الرعب يديه ، فأخذ أرضه ، وافتش
الليث صدره ، ولكن رميته بهامتي وشغلت فمه ، حتى حقنت دمه . وقام الفتى
فوجأ^(٥) بطنه حتى هلك الفتى من خوفه ، والأسد للوجأة في جوفه ، ونهضنا
في إثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت وتركنا ما أفلت ، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه .

فلما حثونا التراب فوق رفيقنا جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

(١) شجر .

(٢) يقطع .

(٣) جمع سريع .

(٤) الشطر الثاني من البيت مثل يراد به بلوغ الغاية والنهاية .

(٥) شق .

وعدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها ، وسرنا حتى إذا ضَمَرَت المَزَادُ^(١) ، ونفد الزاد أو كاد يدركه النفاد ، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع ، وخفنا القاتلين الظمأ والجوع ، عن لنا فارس فصمدا صمده ، وقصدنا قصده ، ولما بلغنا نزل عن حرّ فرسه ، ينقش الأرض بشفتيه ، ويلقى التراب بيديه ، وعمدني من بين الجماعة فقَبِلَ ركابي ، وتحرّم بجنابي ، ونظرتُ فإذا هو وجهٌ يبرق برق العارض المتهلّل ، وقوام متى ما ترقّ العين فيه تسهل ، وعارض قد اخضرّ ، وشارب قد طرّ^(٢) ، وساعد ملآن ، وقضيب ريّان ، ونجار تركيّ ، وزى مَلَكِي .

فقلنا : ما لك لا أبأ لك ! فقال : أنا عبد بعض الملوك همّ من قتلى بهمّ ، فهمت على وجهي إلى حيث تراني . وشهدت شواهد حاله ، على صدق مقاله ، ثم قال : أنا اليوم عبدك ، ومالي مالك ، فقلت : بشرى لك وبك . أدّاك سيرك إلى فناء رحب ، وعيش رطب .

وهنا تني الجماعة ، وجعل ينظر فتفتننا ألحاظه ، وينطق فتقتلنا ألفاظه ، فقال : يا سادة ، إن في سفح الجبل عينا وقد ركبتُم فلاة عوراء ، فخذوا من هنالك الماء ، فلوينا الأعنة إلى حيث أشار ، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان ، وركب الجنادب^(٣) العيدان ، فقال : ألا تَقِيلُونَ^(٤) في هذا الظلّ الرَّحْب ، على هذا الماء العذب ، فقلنا : أنت وذاك .

فنزل عن فرسه وحلّ منطقته ، ونحى قُرْطُقته^(٥) ، فما استتر عنا إلا بغلالة تتجّ على بدنه ، فما شككنا أنه خاصم الولدان ، ففارق الجنان ، وهرب من

(١) المزاد : جمع مزادة وهي قرينة الماء .

(٢) طلع .

(٣) نوع من الجراد .

(٤) أي ألا تستسلمون إلى التقيلولة وهي النوم بعد الظهور .

(٥) قباء بلا بطانة .

رضوان . وعود إلى السروج فخطَّها ، وإلى الأفراس فحشَّها ، وإلى الأمكنة
فرشَّها ، وقد حارت البصائر فيه ، ووقفت الأبصار عليه ، فقلت : يا فتى ،
ما أطفك في الخدمة ، وأحسنك في الجملة ، فالويل لمن فارقتك ، وطوبى لمن
رافقتك ، فكيف شكر الله على النعمة بك ؟ ! فقال ما سترونه منى أكثر . أتعجبكم
خفتي في الخدمة ، وحسني في الجملة ، فكيف لو رأيتموني في الرقعة ، أريكم من
حذق طرِّفاً ، لتزدادوا بي شغفاً ؟ فقلنا : هاتِ ، فعمد إلى قوس أحدنا فأوتره
وفوق سهماً فرماه في السماء ، وأتبعه بآخر فشقه في الهواء .

وقال : سأريكم نوعاً آخر ، ثم عمد إلى كنانتي فأخذها وإلى فرسي فعلاه ،
ورمى أحدنا بسهم أثبته في صدره ، وآخر طيره من ظهره ، فقلت : ويحك
ما تصنع ؟ ! قال : اسكت يا لكع^(١) ، والله كيشدن كل منكم يد رفيقه ، أو
لأغصنه بريقه .

فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة ، وسروجنا محطوطة ، وأسلحتنا بعيدة
وهو راكب ونحن رجالة ، والقوس في يده يرشق بها الظهور ، ويمشق بها
البطون والصدور ، وحين رأينا الجد ، أخذنا القد^(٢) ، فشد بعضنا بعضاً
وبقيت وحدي لا أجد من يشد يدي ، فقال : اخرج بإهابك ، عن ثيابك ،
فخرجت . ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر ، وينزع ثيابه ،
وصار إلى ، وعلى خُفَّان جديدان ، فقال : على خلعه ، ثم دنا إلى لينزع
الخف ، ومددت يدي إلى سكين كان معي في الخف ، وهو في شغله فأثبتته في
بطنه ، وأثبتته من مئنه ، فما زاد على فم فغره^(٣) ، وألقمه حجره .

(١) اللئيم .

(٢) سير من جلد .

(٣) فتحه .

وقمت إلى أصحابي فخلت أيديهم وتوزعنا سلب القتيلين ، وأدركنا الرفيق
وقد جاد بنفسه ، وصار لرمسه ، وصرنا إلى الطريق ووردنا حمص بعد ليالٍ
خمس ، فلما انتهينا إلى فُرْضَةِ^(١) من سُوْقِهَا رأينا رجلاً قد قام على رأس ابنٍ
وَبَذِيَّةٍ ، بجراب وعُصِيَّةٍ وهو يقول :

رَحِمَ اللهُ مَنْ حَشَا في جِرَابِي مَكَارِمَهُ
رَحِمَ اللهُ مَنْ رَنَا لسَعِيدٍ وَفَاطِمَةَ
إِنَّهُ خَادِمٌ لَكُمْ وهى لا شكَّ خَادِمَهُ

قال عيسى بن هشام : فقلت إن هذا الرجل هو الإسكندري الذي سمعت به ،
وسألت عنه فإذا هو هو فدلقت إليه ، وقلت : احْتِكِمُ حُكْمَكَ ، فقال :
درهم ، فقلت :

لَكَ دَرَهْمٌ فِي مِثْلِهِ ما دام يسعدُنِي النَّفْسُ
فاحسب حسابك والتمس كما أُنِيلَ الْمُتَمَسُّ

وقلت له : درهمٌ في اثنين في ثلاثة في أربعة في خمسة حتى انتهيتُ إلى
العشرين ثم قلت : كم مَعَكَ ؟ قال : عشرون رغيفاً ، فأمرت له بها ، وقلتُ :
لا نصرَ مع الخِذْلَانِ ، ولا حيلة مع الحِرْمَانِ .

المقامة المكفوفية

حدثنا عيسى بن هشام ، قال : كنت أجتازُ في بعض بلادِ الأهواز ، وقصاراى
لفظةُ شَرُودُ أصيدها ، وكلمة بليغة أستزيدها ، فأداني السيرُ إلى رقعةٍ فسيحة من
البلد ، وإذا هناك قوم مجتمعون على رجل يستمعون إليه وهو يخبطُ الأرض بعصا
على إيقاعٍ لا يختلف ، وعلمت أن مع الإيقاع لحنًا ، ولم أبعُدْ لأنال من السَّماع
حظًا ، أو أسمع من الفصيح لفظًا ، فما زلت بالنظارة أزحم هذا وأدفع ذاك حتى
وصلت إلى الرجل ، وسرحتُ الطرفَ منه إلى حُرْقَّة^(١) كالقرني ، أعمى
مكفوف ، في شَمْلَةِ صوف ، يدور كالخذروف^(٢) ، متبرنسا بأطول منه ، معتمداً
على عصا فيها جلاجل يخبط الأرض بها على إيقاع غنج ، بلحنٍ هَزَج ،
وصوتٍ شَجَج ، من صدر حَرَج ، وهو يقول :

يا قومُ قد أثقلَ ديني ظهري وطالبتني طَلَّتِي^(٣) بالمهرِ
أصبحتُ من بعد غنىٍ ووفرٍ ساكنَ فقرٍ وحليفَ فقرِ
يا قومُ هل بينكم من حُرٍّ يعينني على صروف الدهرِ
يا قومُ قد عيل لفقرى صَبْرِي وانكشفتُ عنى ذيلُ السَّترِ
وفضَّ ذا الدهرُ بأيدي البترِ ما كان لي من فضةٍ وتبرِ
أوى إلى بيتٍ كقيدٍ شَبْرٍ حاملَ قَدَرٍ وصغيرَ قَدَرِ

(١) قصير كبير البطن . والقرني الخنفساء .

(٢) لعبة للصبيان شبه بها امرؤ القيس : درير كخذروف الوليد ... إلخ .

(٣) الزوجة .

لو ختمَ اللهُ بخيرِ أمرى أعقبني عن عسرٍ يسرٍ
هل من فتى فيكم كريمٍ النَجَرِ^(١) محتسبٍ فيَّ عظيمِ الأجرِ
إن لم يكن مغتنياً للشكرِ

قال عيسى بن هشام : فرقَ له والله قلبي واغرورقت له عيني ، فنلتته ديناراً
كان معي ، فما لبث أن قال :

يا حسنَهَا فاقعةٌ^(٢) صفراءُ ممشوقةٌ منقوشةٌ قوراءُ
يكادُ أن يقطرَ منها الماءُ قد أثمرتها همّةٌ عليها
نفس فتى يملكهُ السَّخاءُ يصرفهُ فيه كما يشاءُ
يا ذا الذي يعنيه ذا الشَّاءِ ما يتقصَّى قدرَكَ الإطراءُ
امضِ إلى الله لك الجزاءُ

ورحمَ اللهُ من شدَّها في قرَن^(٣) مثلها ، وآنسها بأختها ، فناله الناس ما نالوه ،
ثم فارقههم وتبعته وعلمت أنه متعامٍ لسرعة ما عرف الدينار ، فلما نظمتنا خالوةً
مددتُ يميني إلى يُسرَى عَضْدِيهِ وقلت : والله لتريني سرَك ، أو لا كشفنَّ
سترك ، ففتح عن توأمتي لوز^(٤) . وحدثت لثامه عن وجهه فإذا والله شيخنا
أبو الفتح الإسكندري ، فقلت : أنت أبو الفتح ! فقال : لا

أنا أبو قَلَمُونٍ في كلِّ لونٍ أكونُ
اختر من الكسبِ دونا فإنَّ دهرَكَ دونُ

(١) الأصل .

(٢) شديدة الصفرة .

(٣) النير .

(٤) يقصد ما تقوله العوام : عيون لوزية .

زَجَّ الزمانَ بِحُمُقٍ إِنَّ الزمانَ زَبُونُ^(١)
لا تَكْذِبَنَّ بِعَقْلٍ ما العَقْلُ إِلَّا الجُنُونُ

المقامة الفزارية

حدَّثنا عيسى بن هشام قال : كنتُ في بعضِ بلادِ فِزارَةٍ مرتحلاً نجيبةً ،
وقائداً جنيبةً^(٢) ، يَسْبَحانِ بِي سَبْحاً ، وأنا أهُمُّ بالوطنِ فلا الليلُ يثني بوعيده ،
ولا البعدُ يلويني بيده ، فظلتُ أخبطُ وَرَقَ النهارِ بعصا التسيار ، وأخوضُ
بطنَ الليلِ ، بجوافر الخيل ، فبينما أنا في ليلةٍ يضل فيها الغَطاطُ^(٣) ، ولا يبصر فيها
الوطواط ، أسيحُ سَيْحاً ولا سانحُ إِلَّا السَّبْعُ ، ولا بارحُ إِلَّا الضَّبْعُ ، إذ عنَّ
لى راكبٍ تامُّ الآلاتِ يومَ الأثلاثِ ، يطوى إلى منشورِ الفلواتِ ، فأخذني
منه ما يأخذُ الأعزلُ ، من شاكي السلاحِ . لكنني تجلّدتُ فقلتُ أرضَكَ لا أُمُّ
لكِ فدونك شرطِ الحِدادِ ، وخرطُ القتادِ ، وخصمُ ضخمِ ، وحميةُ أزدِيَّةٍ ،
وأنا سلمٌ إن شئتُ ، وحربٌ إن أردتُ ، فقل لي من أنت ؟

فقال : سلماً أصبتُ ، فقلتُ : خيراً أُجبتُ ، فمن أنت ؟ قال : نصيحُ إن
شاورتُ ، فصيحٌ إن حاورتُ ، ودون اسمي لثامُ ، لا تميّطه الأعلامُ .

قلتُ : فما الطُعْمَةُ^(٤) ؟ قال أجوب جيوب البلادِ ، حتى أقع على جَفْنَةٍ
جوادِ ، ولي فؤاد يخدمه لسانُ ، وبيان يرقمه بنانُ ، وقصاراى كريمٍ يخفضُ لى
جنيبته^(٥) ، وينفضُ إلى حقيبتِهِ ، كابن حر طلع على بالأمس ، طلوعَ الشمسِ ،

(١) يشبه الزمان بهيمة ترفس وقت الحلب .

(٢) دابة أخرى يركبها إذا تعبت الأولى وهكذا .

(٣) القطا .

(٤) الحرفة . أسلوب المعاش .

(٥) فردة الحمل .

وغرب عني بغروبها ، لكنه غاب ولم يغب تذكاره ، وودّع وشيعتي آثاره ،
ولا يُذنبُك عنها ، أقربُ منها ، وأوماً إلى ما كان لبسه .

فقلت : شحاذ وربّ الكعبة أخاذ ، له في الصنعة نفاذ ، بل هو فيها
أستاذ ، ولا بدّ من أن ترشح له وتسحّ عليه .

فقلت : يافتي ، قد جليت عبارتك فأين شعرك من كلامك ؟ فقال : وأين
كلامي من شعري ! ثم أستمّد غريزته ، ورفع عقيرته بصوت ملاً الوادى وأنشأ يقول :

وأروع أهداهُ لى الليلُ والفلا وخسّ تمسُّ الأرض لكن كلاً ولا
عرضتُ على نارِ المكارم عودهُ فكان مُعمّاً في السيادة فحولاً
وخادعته عن ماله فخدعتهُ وساهلتهُ من برّه فتسها
ولما تجالينا وأحمدَ منطقي بلاني من نظمِ القريضِ بما بلا
فما هزّ إلا صارماً حين هزّني ولم يلقني إلا إلى السبقِ أوّلاً
ولم أره إلا أغرّ محجلاً وما تحته إلا أغرّ محجلاً

فقلت له : على رسلك يا فتي . ولك فيما يصحبني حكمك ، فقال : الحقيقة بما
فيها ، فقلت : إن^(١) وحاملتها ، ثم قبضت بجمعي عليه وقلت : لا والذي ألهمها
لمساً ، وشقها من واحدةٍ خمساً ، لا تزايلني أو أعلم علمك ، فحدّر لثامه عن وجهه
فإذا هو ، والله ، شيخنا أبو الفتح الإسكندري ، فما لبثت أن قلت

توشّحت أبا الفتح بهذا السيفِ مختالا

فما تصنعُ بالسيفِ إذا لم تكُ قتلاً

فصنعُ ما أنتَ حلّيتَ به سيفكَ خلخالاً

المقامة الوصية

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما جهز أبو الفتح الإسكندري ولده للتجارة أقعده يوصيه فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم :

يا بُنَيَّ ، إني وإن وثقتُ بمتانة عقلك ، وطهارة أصلك ، فإني شفيقٌ والشفيقُ سيئُ الظن ، ولستُ آمنُ عليك النفس وسلطانها ، والشهوة وشيطانها ، فاستعن عليهما نهارك بالصوم ، وليالك بالنوم ، إنه لبوسٌ ظهارتهُ الجوع ، وبطانتُهُ الهُجُوع ، وما لبيسهما أسدٌ إلا لأنت سورتُهُ ، أفهمتهما يا ابن الخبيثة !

وكما أخشى عليك ذاك فلا آمنُ عليك إصين أحدهما الكرم ، واسم الآخر القرم^(١) فإياك وإياها . إن الكرم أسرعُ في المال من السوس ، وإن القرم أشأمُ من البسوس^(٢) ، ودعني من قولهم : إن الله كريم ! إنها خدعة الصبي عن اللبن ، بلى إن الله لكريم ، ولكنَّ كرم الله يزيدنا ولا ينقصه ، وينفعنا ولا يضره ، ومن كانت هذه حاله ، فلتكرم خصاله ، فأما كرمٌ لا يزيدك حتى

(١) القرم : شدة الشهوة إلى أكل اللحم .

(٢) البسوس : خالة جساس بن مرة يضرب بها المثل في الشؤم ذلك أنها كانت السبب في نشوب الحرب بين بكر وتغلب بأبيات من الشعر أوغرت بها صدر جساس فقتل كليب وائل في ناقة لرجل من جرم يسمى سعداً كان كليب قد قتلها لأنه وجدها في مرعاه وكان جساس قد حمى الرجل . أما الأبيات وتسمى بالموثبات فهي هذه :

لعمري لو أصبحت في دار منقذ	لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة	متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل	فإنك في قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادى إيليك فإنني	محاذرة أن يغدروا ببنياتي
وسر نحو جرم إن جرماً أعزة	ولا تلك فينا لاهياً بين نسوات

ينقصني ، ولا يريشك حتى يبريني ، فخذلانٌ لا أقول عبقرى ، ولكن بقرى ،
أفهمتهما يا ابن المشؤومة .

إنما التجارة تُنبطُ الماء من الحجارة ، وبين الأكلة والأكلة ريح البحر ،
بيد أن لا خطر ، والصينُ غير أن لا سفر . أفتركه وهو معرضٌ ثم تطلبه وهو
مُعوز ، أفهمتهما لا أم لك !

إنه المال عافاك الله فلا تنفقن إلا من الربح ، وعليك بالخبز والملح ، ولك في
الخلّ والبصل رخصة ما لم تدمهما ، ولم تجمع بينهما ، واللحم لحك وما أراك
تأكله ، والخلو طعامٌ من لا يبالي على أى جنبيه يقع ، والوجبات عيش
الصالحين ، والأكل على الجوع واقية الفوت ، وعلى الشَّبَعِ داعية الموت ، ثم
كن مع الناس كلاعب الشطرنج : خذ كل ما معهم واحفظ كل ما معك .
يا بنى ، قد أسمعتُ وأبلغت ، فإن قبلتَ فالله حسبك ، وإن أبيتَ فالله
حسبيك^(١) ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ه — من المقامات المديحية

المقامة الملوكية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت في منصرفي من اليمن ، وتوجهي إلى
نحو الوطن ، أسرى ذات ليلة لا سانح بها إلا الضَّيْع ، ولا بارح إلا السَّبْع ، فلما
انْتَضَى نصلُ الصباح ، وبرز جبين المصباح ، عنَّ لي في البراح^(٢) ، راكبٌ
شاكي السلاح ، فأخذني منه ما يأخذ الأعزل ، من مثله إذا أقبل ، لكني
تجلدت فوقفت ، وقلت : أرضك لا أم لك ، فدوني شرط الحداد ، وخرط

(١) محاسبك

(٢) الأرض الجرداء الواسعة .

القتاد ، وحمية أزدية ، وأنا سلم إن كنت ، فمن أنت ، فقال : سلماً أصبت ،
ورقيقاً كما أحببت ، فقلت : خيراً أحببت ، وسرنا فلما تخالينا ، وحين تجالينا ،
أجلت القصة عن أبي الفتح الإسكندري ، وسألني عن أكرم من لقيته من الملوك ،
فذكرت ملوك الشام ، ومن بها من الكرام ، وملوك العراق ومن بها من
الأشراف ، وأمراء الأطراف ، وسقت الذكر ، إلى ملوك مصر ، فرويت ما رأيت
وحدثته بعوارف ملوك اليمن ، ولطائف ملوك الطائف ، وختمت مدح الجملة ،
بذكر سيف الدولة ، فأنشأ يقول :

يا ساريًا بنجوم الليل يمدحها ولورأى الشمس لم يعرف لها خطرا
وواصفًا للسواقى هبك لم تزر البحر المحيط ألم تعرف له خبرا !
من أبصر الدر لم يعدل به حجرًا ومن رأى « خلفًا » لم يذكر البشرًا
زره تزر ملكا يعطى بأربعة لم يحوها أحد وانظر إليه ترى
أيامه غررًا ، ووجهه قمرًا وعزمه قدرًا ، وسنبيه مطرا
ما زلت أمدح أقوامًا أظنهم صفو الزمان فكانوا عنده كدرا

قال عيسى بن هشام ، فقلت : من هذا الملك الرحيم الكريم ، فقال : كيف
يكون ، ما لم تبلغه الظنون ، وكيف أقول ، ما لم تقبله العقول ، ومتى كان ملك
يأنف الأكارم ، إن بعثت بالدرهم ، والذهب ، أيسر ما يهب ، والألف ،
لا يعمه إلا الخلف ، وهذا جبل الكحل قد أضر به الميل^(١) ، فكيف لا يؤثر
ذلك العطاء الجزيل ، وهل يجوز أن يكون ملك يرجع من البذل إلى سرفه ،

ومن الخلق إلى شرفه ، ومن الدين إلى كلفه ، ومن الملك إلى كنفه ، ومن الأصل إلى سلفه ، ومن النسل إلى خلفه .

فليت شعري مَنْ هذى مآثره ماذا الذى يبلوغ النجم ينتظر

المقامة النيسابورية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بنيسابور ، يوم جمعة ، فحضرت المفروضة ، ولما قضيتها اجتاز بي رجلٌ قد لبس دَنِيَّةً ^(١) ، وتحنَّك سُنِّيَّةً ^(٢) ، فقلت لمُصلِّ مجنبي : من هذا ؟ قال : هذا سوس لا يقع إلا فى صوف الأيتام ، وجرادٌ لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولصٍّ لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يغير إلا على الضعاف ، وذئبٌ لا يفترس عبادَ الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ، وقد لبس دينيته وخلع دينيته ، وسوى طيلسانه ، وحرّف يده ولسانه ، وقصّر سبالة ، وأطال حباله ، وأبدى شقاشقه ، وغطّى مخارقه ، وبَيّضَ لحيته ، وسوّدَ صحيفته ، وأظهر ورعه ، وستر طمعه . قلت : لعن الله هذا ، فمن أنت ، قال : أنا رجل أعرفُ بالإسكندري ، فقلت : سقى الله أرضاً أنبت هذا الفضل ، وأباً خلفَ هذا النسل ، فأين تريد ؟ قال : الكعبة ، فقلت بخَّ بخَّ بأكلها ولما تُطبخ ^(٣) ، ونحن إذا رفاق .

فقال : كيف ذلك وأنا مصعدٌ وأنت مصوَّب ، قلت : فكيف تصعد إلى الكعبة ؟ قال : أمّا إنى أريد كعبة المحتاج ، لا كعبة الحجاج ، ومَشَعَر الكرم ،

(١) قلنسوة القاضى .

(٢) نسبة إلى أهل السنة .

(٣) يعنى زيارة الكعبة وثوابها .

لَا مَشْعَرُ الْحَرَمِ ، وَبَيْتُ السَّبْيِ ، لَا الْهَدْيُ ^(١) وَقِبْلَةُ الصَّلَاتِ ^(٢) ، لَا قِبْلَةُ الصَّلَاةِ ،
وَمِنَى الضَّيْفِ ، لَا مَنَى الْخَلِيفِ ^(٣) ، قُلْتُ وَأَيْنَ هَذِهِ الْمَكَارِمُ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :
بِحَيْثُ الدِّينُ وَالْمَلِكُ الْمُؤَيَّدُ وَخَدُّ الْمَكْرَمَاتِ بِهِ مُورَدُ
بَارِضٍ تَنْبَتُ الْأَمَالُ فِيهَا لِأَنَّ سَحَابَهَا خَلَفَ بْنَ أَحْمَدُ

المقامة الخلفية

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ : لَمَّا وُلِّيتُ أَحْكَامَ الْبَصْرَةِ ، وَانْحَدَرْتُ إِلَيْهَا
عَنِ الْحَضْرَةِ ، صَحْبَنِي فِي الْمَرْكَبِ شَابٌّ كَأَنَّهُ الْعَافِيَةُ فِي الْبَدَنِ ، فَقَالَ : إِنِّي فِي
أَعْطَافِ الْأَرْضِ وَأَطْرَافِهَا ضَائِعٌ لَكِنِّي أَعَدَّ مَعَدَّةَ أَلْفٍ ، وَأَقُومُ مَقَامَ صَفٍّ ، وَهَلْ
لَكَ أَنْ تَتَّخِذَنِي صَنِيعَةً ، وَلَا تَطْلُبَ مِنِّي ذَرِيعَةً ، فَقُلْتُ : وَأَيُّ ذَرِيعَةٍ آكَدُ
مِنْ فَضْلِكَ ، وَأَيُّ وَسِيلَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عَقْلِكَ ، لَا بَلْ أَخْدَمُكَ خِدْمَةُ الرَّقِيقِ ،
وَأَشَارَكَكَ فِي السَّعَةِ وَالضِّيقِ . وَسَرْنَا ، فَلَمَّا وَصَلْنَا الْبَصْرَةَ غَابَ عَنِّي أَيَّامًا فَضُضْتُ
لِغَيْبَتِهِ ذَرْعًا ، وَلَمْ أَمْلِكْ صَبْرًا ، فَأَخَذْتُ أَفْتَشُ جَيُوبَ الْبَلَدِ حَتَّى وَجَدْتُهُ ، فَقُلْتُ :
مَا الَّذِي أَنْكَرْتَهُ وَلَمْ تَهْجُرْ ، فَقَالَ : إِنَّ الْوَحْشَةَ تَقْدَحُ فِي الصَّدْرِ اقْتِدَاحَ النَّارِ
فِي الزُّنْدِ ، فَإِنْ أَطْفَأَتْ نَارَتْ وَتَلَاشَتْ وَإِنْ عَاشَتْ طَارَتْ وَطَاشَتْ ، وَالْقَطْرُ إِذَا
تَتَابَعَ عَلَى الْإِنَاءِ امْتَلَأَ وَفَاضَ ، وَالْعَتَبُ إِذَا تَرَكَ فَرَّخَ وَبَاضَ ، وَالْحَرْحُ لَا يَعْلاَقُهُ
شَرَكٌ كَالْعَطَاءِ ، وَلَا يَطْرُدُهُ سَوْطٌ كَالْجَفَاءِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ ، نَنْظُرُ مِنْ عَالٍ ، عَلَى
الْكَرِيمِ نَظْرَ إِدْلَالٍ ، وَعَلَى اللَّئِيمِ نَظْرَ إِذْلَالٍ ، فَمَنْ لَقِينَا بِأَنْفٍ طَوِيلٍ ، لَقِينَاهُ
بِخَرْطُومٍ فِيلٍ ، وَمَنْ لَحَظْنَا بِنَظَرٍ شَرِّزٍ ، بَعْنَاهُ بِشَمَنِ نَزَرٍ ، وَأَنْتَ لَمْ تَغْرَسْنِي لِيَقْلَعْنِي

(١) مَا يَسَاقُ مِنْ أَنْعَامٍ لِيُحْيَى بِهَا .

(٢) الْعَطَايَا .

(٣) بِلَدَةِ قَرَبِ مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ

غلامك ، ولا اشتريتنى لتبيعنى خدامك ، والمرء من غلمانه ، كالكتاب من عنوانه ، فإن كان جفاؤهم شيئاً أمرت به فما الذى أوجب ، وإن لم تكن علمت به كان أعجب ، ثم قال :

ظفرت يدا خلف بن أحمد إنه سهل الفناء مؤدب الخدام -
أوما رأيت الجود يجتاز الورى ويحل من يده بدار مقام -
قال عيسى بن هشام : ثم أعرض وتبعته أستعطفه وما زلت ألافه حتى
انصرف ، بعد أن حلف : لا أوردت من أساء عشرته ، فوهبت له حرمة .

٣ - الديوان

١ - من المديح

الملك السباق

قال يمدح أبا الحارث الفريغونى أمير جوزجان :

سل الملك الكريم إلام تبني وأين وقد تجاوزت السماء
أجدك لا يراك الله إلا علاء أو عطاء أو وفاء
ولو ذوبتني ما كنت إلا ولاء أو دعاء أو ثناء
منحتك من سواء الصدر ودأ يكاد لفرطه يروى الظماء
أيعجزني إذا احتكوا هنا ولاسكبي إذا مرضوا شفاء !
جريت مع الملوك إلى مداها فقتهم سناء وارتقاء
فضلتهم ندى وفضلت مالا ومن طلب الثناء رعى الثراء

أمن جمع الدراهم واقتناها
 كمن جمع النهى ليسوا سواء
 يكاد التخت يورق جانباه
 ويقطر عوده ليناً وماء
 إذا خطرت له قدماك تسعى
 إلى أعواده أو قيل جاء

سيد الأمراء

وقال يمدح صاحب الجيش أبا على :

على أن لا أريح العيس والقتبا
 وأترك الخود معسولاً مقبلها
 وطفلة كقضيبي البان منعطفاً
 تظل تنثر من أجفانها حبيباً
 قالت وقد علقت ذيلي تودعني
 لا درّ درّ المعالي لا يزال لها
 فقلت ردّي قناع الصبر إن لنا
 أبي المقام بدار الذلّ لى كرم
 وعزيمة لا تزال الدهر ضاربة
 يا سيد الأمراء أفر ، فما ملك
 إذا دعيت المعالي عرف هامتها
 أين الذين أعدوا المال من ملك
 ما السيف محتطماً ، والسيل مرتكماً
 أمضى شباً منك ، أدهى منك صاعقة
 وألبس البيد والظلماء واليلبا
 وأهجر الكأس يغدو شرّها طربا
 إذا مشت وهلال الشهر منتقبا
 دوني وتنظم من أسنانها حببا
 والوجد يخنفها بالدمع منسكبا
 برق يشوقك لا هونا ولا كثبا
 إليك أوبة مشتاق ومنقلب
 وهمة تصل التخويد والخببا
 دون الأمير وفوق المشتري طنبا
 إلا تمنّاك مولى واشتهاك أبا
 لم ترض كسرى ولا من قبله ذنبا
 يرى الذخيرة ما أعطى وما وهبا
 والبحر ملتطماً ، والليل مقتربا
 أجدى يمينا ، وأدنى منك مطلباً

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكباً
والدهر لو لم يخن، والشمس لو نطقت
يا من يراه ملوك الأرض فوقهم
لا تكذبن فخير القول أصدقه
فما السموءل عهداً، والخليل قرى
من الأمير بمعشار إذا اقتسموا
ولا ابن حجر، ولا الديان يعشرني
هذا لركبته، هذا لرهبته،
لو كان طلق الحيا يطر الذهبا
والليث لو لم يصد، والبحر لو عذبا
كما يرون على أبراجها الشهبا
ولا تهابن في أمثالها العربا
ولا ابن سعدى ندى، والشنفرى غلبا
مآثر الجد فيما أسلفوا نهبا
والمازني، ولا القيسي منتدبا
هذا لرغبته، هذا إذا طربا

ابن السماء

وقال يمدح الأمير العنبري :

حي الأمير العنبري وقل له
أنت ابن بيت في السماء مكانه
أركبني فرس الكرامة ملجماً
ولئن فعلت لأشكرنك في الوري
بمدائح لا ينمحي ديباجها
يا كعبة آمالنا حجاجه
سقفاً وفوق المشتري معراجهُ
وعليك بعد لجامه إسراجهُ
شكراً تموج عليكم أمواجه
وبخاطر لا ينتهي عجاجهُ

أنا العبد

ومن قصيدة قالها في مدح الأمير أبي علي ابن ناصر الدولة :

وما حالُ صبٍّ بالعراق فؤاده أسيرٌ وثاوٍ في خراسان سائرُهُ
 على أن في قرب الأمير وبسطه لنا عَوْضاً لا يخلف الظنَّ ماطرهُ
 ألم تر أن الملك قرَّ قرارهُ إذا زُيِّنَتْ باسم الأمير منابرهُ
 سحابٌ ولكنَّ الدنانيرَ صوبُهُ وليثٌ ولكنَّ الملوكَ عقائرهُ
 وأبلج كالصبحِ الأغرَّ جبينهُ ضياءٌ ، وكالليلِ البهيمِ عساكرهُ
 تذللُّ له الأقدارُ وهى جنودهُ وتخدمهُ الأيامُ وهى عشائرهُ
 يموجُ به في الحربِ صافٍ أديمهُ حفوزٌ لهاماتِ الملوكِ حوافرهُ
 ألم تر غرَّ شُستانٍ كيف تغورَّتْ معاقلها لما انتحتها بصائرهُ
 حنانيك حسّادى كثيرٌ كما ترى ومن حلَّ من عليك حيثُ تحلّنى
 أنا العبدُ لا يأبى عليك ولاؤه تصدّى له قاصى المحلِّ وقاصِرهُ
 ولاؤه

بحر جواهر

وقال من قصيدة يمدح الأمير خلف بن أحمد :

وفى خَلْفٍ إن ألحقتنا يدُ المنى لنا خَلْفٌ لا يُخلفُ الظنَّ ماطرُهُ
 فلما وردنا موسمَ الملك أقبلتُ وفودُ الغنى واستقبلتنا بوادِرهُ
 ولما انجلى بدر الدجى من جبينهِ أعرنا الثرى حرَّ الوجوه تعافرهُ

جلبنا إليه الفضل وهو أميره
 ومُجِتُّ فقال الناسُ من ذا؟ وقال من
 ولاحت لنا منه عيوبٌ كثيرةٌ
 ولادته في عالمٍ دونَ قدره
 وما ملك إلا يؤدّي خراجَه
 أيا جابر العظم المهيض لقاءه
 أتأمرُ لي ببِدْرَةٍ كلَّ نظرةٍ
 فإن يكُ بحرٌ أغرق الناسَ ماؤه
 وبعنا عليه بزه وهو تاجرُهُ
 أجابهم : عبدُ الأميرِ وشاعره
 ولا عيبَ فيه غيرَ ما أنا ذا كره
 وفي زمنٍ مثل اسمه لا يقادره
 إليه على رغمٍ ونحن نصادره
 ولا يجبر العظم الذي هو كاسره
 إلى الشغل باستيفاء ما أنت أمره
 فإنك بحرٌ أغرقتني جواهرُهُ

يد الندى والنار

وله من قصيدة في خلف بن أحمد :

وليلٍ كذكره كعناهُ كاسمه
 شققنا بأيدي العيسِ بردَ ظلامه
 تزج بنا الأسفارُ في كل شاهقٍ
 كأن مطايانا سفارٌ كأنما
 كأن نجومَ الليل نظارةٌ لنا
 كأن نسيمَ الصبحِ فرصةٌ آيسٍ
 كأن سماءَ الدجن لولا انقشاعها
 كدين ابنِ عبّادٍ كإدبارٍ فائقٍ
 وبتنا على وعدٍ من السيرِ صادقٍ
 وترعى بنا الآمال من كل حالقٍ
 تمدُّ إلينَّ الفلا كفَّ سارقٍ
 تعجّب من آمالنا والعوائقِ
 كأن سرابَ القميطِ خجلةٌ وامقٍ
 يدَا خَلَفٍ عند النداء والصواعقِ

ابن خاقان

وقال يمدح يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين :

تعالى الله ما شاء	وزاد الله إيماني
أفريدون في التاج	أم الإسكندر الثاني
أم الرجعة قد عادت	إلينا بسليمان
أطلت شمس محمود	على أنجم سامان
وأمسى آل بهرام	عبيداً لابن خاقان
إذا ما ركب الفيل	لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطاناً	على منكب شيطان
فمن واسطة الهند	إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند	إلى أقصى خراسان
على مقتبل العمر	وفي مفتتح الشان
فيوماً رُسلُ الشاه	ويوماً رُسلُ الخان
فما يعزبُ بالمغر	بِعن طاعتك اثنان
أيا والى بغداد	ويا صاحب همدان
تأمل مائتي فيل	على سبعة أركان
يقلبن أساطين	ويلعبن بثعبان
ويا جوج ومأجوج	من الجند تموجان

ب - من الرثاء

حزن وندم

وقال يرثي الأستاذ أبا بكر الخوارزمي :

حنانيك من نفس خافتِ ولبيك من كمدٍ ثابتِ
 أبا بكرٍ اسمعُ وقل كيفَ ذا ولستَ بمسمةِ الصائتِ
 تحمّلتُ فيك من الحزنِ ما تحمله أبُنك من صامتِ
 حلفتُ لقد متَّ عن معشرٍ غمّيينَ عن خطرِ المائتِ
 يقولونَ أنتَ به شامتٌ فقلتُ الثرى بقمِ الشامتِ
 وعزّتُ علىَّ معاداتُهُ ولا متداركُ للفائتِ
 وقالَ الأنامُ خلا الجوِّ لى لعمرى ولكن على عانتِ
 أبيضُ ولكن إلى عاقِرٍ وأصفرُ لكن على ساكتِ

ج - من الاعتذار

مخلص الود

وقال قصيدة طويلة في صاحب ابن عباد منها هذا الاستعتاب والاعتذار إليه :

أَكفى الكفاةِ أَسْتَبِقِ منى ومن دعى حشاشةَ مجدٍ في البلادِ مُشْرِدِ
 أفى موجب الفضل الذى أنتَ أهلهُ توعّدُ مثلى ، أم قضيةٌ سُودِدِ
 أبعدَ مقاماتى لديك وهجرتى إليك ، وإنفاقى طريفي ومتلدى
 وجوابةً للأفق فيك طردتها غدت بين منشورٍ وبين مقصدِ
 وقفتُ بها أستطلع الرأى منشداً وقلتُ - وأعلى الله قولك - جوّدِ

فأينَ زمانى بالخوافِ حضرتُهُ
 ومالى (وأبوابُ الرجا فيك جمةً)
 ولا باعُ أُمالى إليك بقاصرٍ
 فماذا عسى الواشونَ خاضوا على دمي
 وأيةَ نارٍ شَبَّها أَىَّ مُوقِدٍ
 فإن كنتَ حقاً موعدى بكريميةٍ
 وإن تنوِ تحريكاً وتهذيب جانبٍ
 حنانيك من ظنٍّ لمولاك جائرٍ
 ولم تمضها في مخلص الودِّ نيةً
 ولا أنا إلا في ولائك محتبٍ
 وعذرى عند الله فيك ممهدٍ
 وعقد ولائى في ذراك مؤكّدٍ
 ولستُ لأننى واجدٌ منك مهرباً
 ولكن سألنى العذرَ في كل حالةٍ
 فتبدي لك الأيامُ ما أنا عنده

وأين إلى البابِ الرفيع ترددى
 وقفتُ ببابٍ من رجائك موصدٍ
 ولا وجهُ أعمالى لديك بأسودٍ
 ومن أَى وجهٍ ثار لى أَىَّ مُؤيدٍ
 وأىَّ عظيمٍ هاجَ من أيّما ددٍ
 فرأيتُ في تعجيل يومى عن غدى
 فقد صكّ في ذرعى وقدفُت في يدي
 ولبيك من رأى على العبدِ معتدٍ
 يروح إليه الموت منها ويعتدى
 ولا أنا إلا بالهوى لك مرتدٍ
 وإن كان عند الناس غيرَ ممهدٍ
 وإن لم يكن عقد المنى بمؤكّدٍ
 أحثُّ ركبى فدَفَدًا بعد فدَفِدٍ
 بشكرك في يَوْمى مغيبى ومشهدى
 (ويأتيك بالأخبار من لم تزود)

د - من الفخر

صولة النحيف

وقال يفتخر موطئاً لملاح الشيخ أبي نصر زيد :

خُلِقْتُ كما ترى صعب الثقافِ أَرَدْتُ يدَ المعاندِ في الخلافِ
 ولى جسدٌ كواحدةٍ المثاني له كبدٌ كالثقةِ الأثافي
 هَلُمَّ إلى نحيفِ الجسمِ مني لتنظرَ كيفَ آثَرُ النحافِ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ طائفةً لظاها نتيجةً هذه القصبِ العجافِ
 صحبتُ الدهرَ قبلَ نباتٍ فيه فلا تغرركَ خافية الغدافِ
 نزلتُ من الزمانِ ومن بنيهِ على غصنينِ من شَجَرِ الخلافِ
 فلم أَصحبْ عدوًّا في صديقٍ ولم أَشربْ ذعافاً في سلافِ
 ولم أَرِ غيرَ معتقٍينِ وجداً وبينهما خلافٌ في غلافِ
 على شفتيهما ضحكُ التهماني وفي كبديهما وخزُ الأشافِ

ه - من الشعر المطعم

قصيدة عربية فارسية

قرة عيني بذاك محبتي أي فلـ
 تريدُ أن تقتلني نه درست کردی درلـ
 وأنه حمي ليلك أن ينصب دونی شرکـ
 أما كفي صدغك لي إلى الردی معترکـ

وَأَنْتَى لَا أَرْقُدُ اللَّيْلَ وَأَرعى الْفَلَكَ
كَأَنَّمَا أَلْتَحَفُ الْجَمْرَ وَأَعْلُو الْحَسَا
أَذَابَنِي فَرَطُ الضَّنَا وَهَدَّنِي طَوْلُ الْبَكَا
أَجْتَرُ رَوْحِي وَدُمِي بَنِي هَدَادِ رَوْحَا
وَرَنهُ دَهِي بَوْسَهُ زَلْبُ يَهْلُ يَبُوسَمُ لَبَكَا
فَغَازَهُ قَوْلِي لَهُ فَقَالَ بَسْ وَى نَهْ وَكَأ
تَرِيدُ تَقْيِيلُ فَمَى إِلَيْكَ لَا أُمُّ لَكَا
لَوْلَمْ يَنْمَ لَمْ يَحْتَلَمْ أَحْلَسْتَ كَلَّى فَارَكَا
يَاطِرَةً قَدْ سَلِمْتُ مِنَ الْغَرَابِ الْحَلَكَا
وَمَقْلَةً مِنْ نَقَمْتُ فِيهِ بِسَحْرِ هَلَكَا
هُوَكَ إِذْ أَجْجَفَ بَى بِأَى عَلَقٍ فَتَكَا
تَفْعَلُ الْخَاطُكُ بَى مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ بَكَا
وَكُرْتُو دَادِمَ نَهْ دَهِي يَامَنْ إِلَيْهِ الْمَشْتَكَى
يَكْرَزُ جَامَهُ دَرَمُ سَسَى قَاضَى وَحَكَا
وَقَالَ إِذْ هَدَدْتُهُ سَبْحَانَ مَنْ أَرْفَعَكَا
قَاضٍ إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ يَصِيدُ السَّمَكَا
يَنْصَبُ فِي أَسْفَلِهِ لِكُلِّ حَوْتٍ شَبَكَا
أَفٍ لِقَاضٍ يَبْتَغَى مِنَ الْمَعَاصَى دَرَكَا



المراجع

الكامل لابن الأثير

دروس التاريخ الإسلامى للخياط

يتيمة الدهر للثعالبي

ديوان الهمداني طبعة محمد شكرى المكي

المقامات والرسائل شرح الإمام محمد عبده ، والشيخ إبراهيم الأحمد
مع مراجعة طبعات لهما قديمة .

فهرست

الفصل الأول

عصر بديع الزمان

٥	١ - الحالة السياسية
١٠	٢ - الحالة الاجتماعية
١٢	٣ - الحالة الأدبية

الفصل الثاني

بديع الزمان في عصره

١٦	١ - حياة بديع الزمان :
١٩	أ - نشأته
٢١	ب - في هراة
٢٢	٢ - رأى الكتاب فيه
٢٢	٣ - خلق البديع وخلقته
٢٦	٤ - شخصيته

الفصل الثالث

جوانب بديع الزمان

٣٠	١ - آثار البديع :
	أ - رسائله

٣ - الديوان :

(١) من المديح :

١٠٦	.	.	.	.	.	.	الملك السباق
١٠٧	.	.	.	.	.	.	سيد الأمراء
١٠٨	.	.	.	.	.	.	ابن السماء
١٠٩	.	.	.	.	.	.	أنا العبد
١٠٩	.	.	.	.	.	.	بحر جواهر
١١٠	.	.	.	.	.	.	يد الندى والنار
١١١	.	.	.	.	.	.	ابن خاقان

(ب) من الرثاء :

١١٢	.	.	.	.	.	.	حزن وندم
-----	---	---	---	---	---	---	----------

(ج) من الاعتذار :

١١٢	.	.	.	.	.	.	مخلص الرد
-----	---	---	---	---	---	---	-----------

(د) من الفخر :

١١٤	.	.	.	.	.	.	صرلة النحيف
-----	---	---	---	---	---	---	-------------

(هـ) من الشعر المطعم :

١١٤	.	.	.	.	.	.	قصيدة عربية فارسية
-----	---	---	---	---	---	---	--------------------

١١٦	.	.	.	.	.	.	المراجع
١١٧	.	.	.	.	.	.	الفهرست

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف

في شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩٥٤

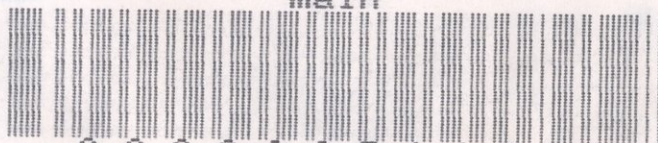
AUC - LIBRARY



DATE DUE

 A.U.C. 3 JUN 1997	 A.U.C. JAN 1998
 A.U.C. 15 APR 1998  A.U.C. 30 MAY 1998	
 A.U.C. 28 DEC 1999	

main



00000086625

PJ 7750 B3 Z57 1954/c.1

d. 1199699
7.13300696

PJ
7750
B3
Z57
1954